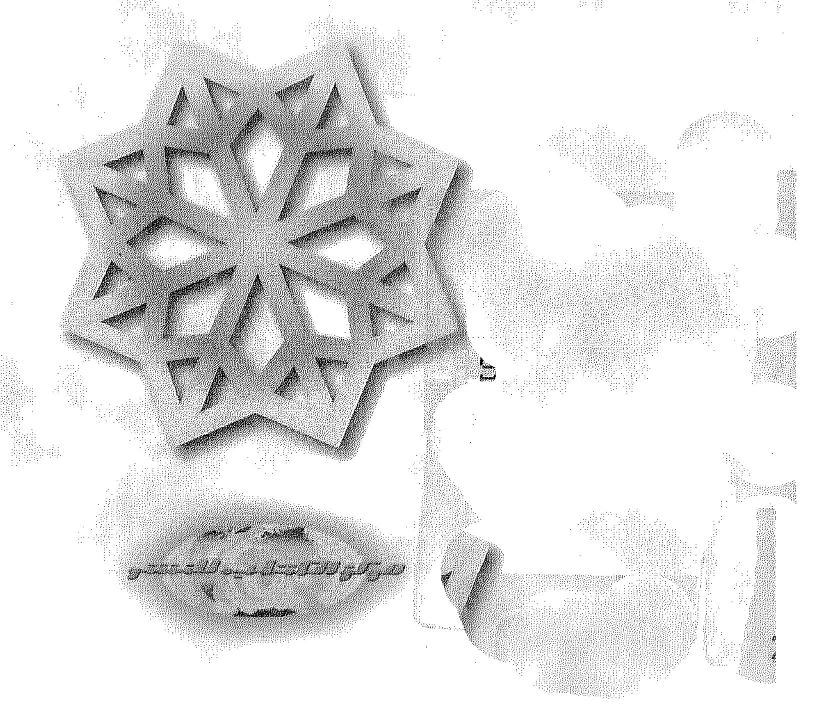
المهاجرون إلى الله

تأليف

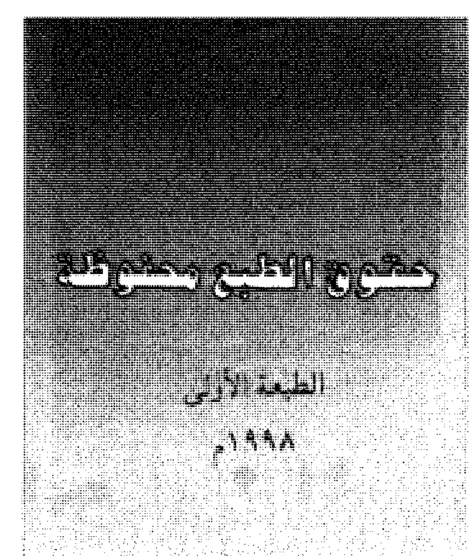
مأمون غريب

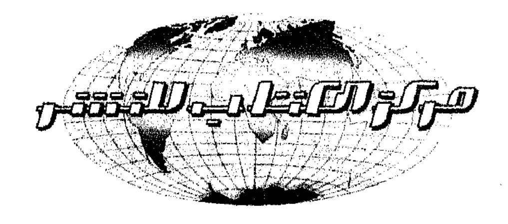


المهاجرون إلى الله

تأليف
مأمون غريب

مركز الكتاب للنشر





مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة

ت: ٢٩٠٨٢٠٣-٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١شارع ابن النفيس-المنطقة السادسة- ت:٢٧٢٣٣٩٨

المهاجرون إلى الله

- الحسن البصرى
- رابعة العدوية
- أبو بكر الشبلى
- ذو النون المصرى
- الحارث المحاسبى
- الإمام الغزالى
- أبو الحسن الشاذلى
- المرسى أبو العباس
- عمر بن الفارض
- الإمام البوصيرى

مقدمة

في طفولتى استرعى انتباهى تلك الموالد التى تقام لعباد الله الصالحين، وكان يشدنى فى تلك الموالد الأناشيد الدينية وحلقات الذكر، والإشادة بمناقب أولياء الله أصحاب الكرامات.

وأحببت فى طفولتى هذه المظاهر، كما أحببت فى قريتى الهادئة تلك الأيام التى تقام فيها هذه الموالد. . فكنت أسهر حتى الفجر. . وما سمعته من الناس عن كرامة هذا الولى أو ذاك ظل محفورا فى ذاكرتى.

ومع الأيام. . وكلما امتدت بى أيام العمر تحول ما رأيته فى الصغر إلى علامات استفهام تبحث عن إجابات.

فهل التصوف الذى اقترن به هؤلاء الأولياء من صميم الإسلام أم هو دخيل عليه؟

وتعمقت فى دراسة التصوف، وقرأت فيه وعنه كثيرا وقد اقتنعت أن التصوف السنى، أى هذا الذى يستمد أصوله من الكتاب والسنة هو من صميم الإسلام، وإذا كانت كلمة التصوف نفسها لم ترد فى الكتاب ولا فى السنة، إلاَّ أن من تابعوا الطريق استمدوا تعاليم التصوف من تعاليم الإسلام، والتصوف لم يظهر إلا فى القرن الثالث الهجرى وقبل ذلك كان الزهد هو أهم الطرق التى أدت الى التصوف بالمعنى الدقيق لكلمة تصوف، وهؤلاء الزهاد اتخذوا من

حياة الرسول الزاهدة، وكثرة عبادته، وكثرة ركوعه وسجوده نبراسا لهم، ولم يحيدوا عن تعاليم الإسلام.. بل هم قوم زادوا فى عبادتهم مقتدين بالرسول العظيم عليه الصلاة والسلام الذى كانت تتورم قدماه من كثرة قيامه الليل مع أن الله سبحانه وتعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وعندما سألته ذات مرة السيدة عائشة رضى الله عنها عن ذلك كان رده:

«أفلا أكون عبدا شكوراً»

وإذا كانت كلمة (تصوف) لم تظهر إلا فى القرن الثالث الهجرى كما قلنا، فليس معنى ذلك أن التصوف دخيل على الإسلام، فكثير من العلوم الإسلامية لم تظهر فى عصر الرسالة كعلم الكلام، وعلوم الفقه والتفسير، إلا أن ظهور هذه الاتجاهات ضرورة تفرضها ظروف الاجتهاد، وتطور الحياة، والاحتكاك بحضارات الأخرين التى دخلت شعوبها الإسلام.. وكانت لهم ثقافاتهم وحضاراتهم.. فكان لابد أن يتولد عن هذا الاحتكاك فكر متجدد.. يساير الحياة فى تموجاتها وتقلباتها دون أن يخرج من أصول الدين الحنيف.

وإن كنت بعد ذلك قد تحفظت على التصوف الفلسفى بشطحاته العجيبة.. ولكن قرأت فيه ما أثار إعجابى بهؤلاء الذين تعمقوا فى الروحية، دون أن ألقى عليهم اتهامات الزندقة والإلحاد.. بل كنت أقرأ مواجيدهم وشطحاتهم.. والبعض رأى منهم أنهم من كبار الأولياء الواصلين، وأن هذه الشطحات هى عدم القدرة على عدم

التعبير عن مواجيدهم العالية حين شفت منهم الروح، وهناك من اتهمهم بالزندقة والكفر عندما تحدثوا فى وحدة الوجود. !

ولكنى فيما بينى وبين نفسى أحببت التصوف المعتدل بلا شطحات ولا تهويمات. . التصوف السنى الذى لايحيد عن الكتاب والسنة، وقد أجمع معظم الصوفية بأن الصوفى الذى يخرج عن الكتاب والسنة زنديق. . أو تلبسه الشبه، حتى لو سار على الماء وطار فى الهواء. !

كنت أقرأ لمحيى الدين بن عربى، وعمر بن الفارض وغيرهما من الصوفية الكبار، وعندما كنت أعجز عن فهم ما كتبوه شعرا أو نثراً، كنت أحاول أن أجد عذرا لنفسى بأننى ربما أكون قد عجزت عن فهم مقاصدهم، ولكن ليس لى أن اتهمهم بالخروج على الإسلام، فهم فى نظر كثيرين من مفكرى الإسلام من كبار رجال الصوفية. . وربما لعدم فهم البعض لهم جعل (ابن عربى) يشرح بنفسه ديوانه (ترجمان الأشواق) حتى لا يلتبس الأمر على أحد.

فالتصوف إذن هو الطريق الذى يسوق صاحبه إلى معارج النور. . لأنه يبتغى وجه والله. . ومن يتجه صوب الله لن يجد من الله إلا الرحمة. . لأنه هو الرحمن الرحيم

مأمون غريب



١- خطوات فى طريق النور

قبل أن ندخل الى عالم الصوفية علينا أن نعرف أن التصوف قد سبق له ومهد له الزهد.. وقد برز هذا اللون من النظرة إلى الحياة والبعد عن زخارفها عندما تكالب الناس على الدنيا، فرأى البعض فى سلوك بعض الصحابة والتابعين نبراسا لهم فى حياتهم، فأعرضوا عن الدنيا إما خشية من عذاب الله كما فعل الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠هـ، أو حبا فى الله كما فعلت رابعة العدوية التى رحلت عن دنيانا سنة ١٨٥هـ.

وتطور هذا الزهد إلى ما أطلق عليه التصوف فى القرن الثالث الهجرى، وأصبح علم التصوف من العلوم التى تعتمد على الرزق والمجاهدة.. ووضحوا منهجهم فى ذلك كما يقول ابن خلدون:

«فلما كتبت العلوم ودونت، وألف الفقهاء فى الفقه وأصوله، والكلام والتفسير وغير ذلك، كتب رجال هذه الطريقة فى طريقهم، فمنهم من كتب فى الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء فى الأخذ والترك، كما فعله القشيرى فى (الرسالة)، والسهروردى (البغدادى) فى كتابه (عوارف المعارف)، فصار علم التصوف فى الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط».

ولقد ظهرت الطرق الصوفية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين

وكان من الطبيعى أن يكون لكل شيخ طريقته. . ولكل طريقة أتباع. . وهؤلاء قال فيهم الإمام القشيرى فى (الرسالة القشيرية):

«فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم عن الكافة من عباده، بعد رسله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون فى عموم أحوالهم من الحق بالحق، صفّاهم من كدورات البشرية، ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بأداب العبودية وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار، ونعت الانكسار، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال، أوصفا لهم من الأحوال، علما منهم بأنه جلّ وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد».

ونرى مؤلف عوارف المعارف (السهروردى) وهو يحدثنا عن منشأ علوم الصوفية. . يورد أحاديث كثيرة يستمد منها الصوفية علومهم فالرسول عليه الصلاة والسلام قال:

«مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أخَّاذات أمسكت الماء فنفع الله

تعالى بها الناس فشربوا، وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة أخرى قيعان لاتمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فُقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فَعَلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أَرْسلت إليه».

قال الشيخ : أعدّ الله تعالى ليقول ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصفى القلوب وأزكى النفوس، فظهر تفاوت الصفاء واختلاف التزكية فى تفاوت الفائدة والنفع، فمن القلوب ما هو بمثابة الأرض الطيبة التى أنبتت الكلأ والعشب الكثير، وهذا مثل ما انتفع بالعلم فى نفسه واهتدى، ونفعه علمه وهداه إلى الطريق القويم من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن القلوب ما هو بمثابة الاخَّاذات- أى الغدران: جمع أخّاذه، وهى المصنع والغدير الذى يجتمع فيه الماء، فنفوس العلماء الزاهدين من الصوفية والشيوخ تزكت وقلوبهم صفت فاختصت بمزيد الفائدة فصاروا أخّاذات.

قال مسروق: صحبت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالأخاذات، لأن قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء التهوم».

ويحدثنا عن ماهية التصوف.. فيورد حديث الرسول عليه الصلاة والسلام:

«لكل شئ مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصُّبُرُ هم جلساء الله تعالى يوم القيامة».

فالفقر كائن فى ماهية التصوف، وهو أساسه وبه قوامه.

ويورد قول ذو النون المصرى:

الصوفية آثروا الله تعالى مع كل شئ فآثرهم الله على كل شىء فكان من إيثارهم أن آثروا علم الله على عِلم نفوسهم، وإرادة الله على إرادة نفوسهم.

ويقول ذو النون المصرى أيضاً:

رأيت ببعض سواحل الشام امرأة، فقلت:

من أين أقبلت؟

قالت: من عند قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

فقلت: وأين تريدين ؟

قالت: إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

قلت: صفيهم لى..

فأنشدت

قوم همومهم بالله قد علقت
فما لهم هِمَمٌ تسمو إلى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم
باحسن مطلبهم للواحد الصمد

ما إن تنازعهم دنُيا ولا شرف
من المطاعم واللذات والولد

ولالبــس ثيــاب فـــائق أنـــق

ولا لـروْح سـرور حـلَّ فـى بلـد

إلا مســـــارعةٌ فــى إثـر منزلـــة

قـد قـارب الخطـوُ فيها باعد الأبد

فهـم رهـــائن غـــدران وأوديـــة

وفـى الشـوامخ تلقـاهم مع العدد

وقال الجنيد: الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح.

فالتصوف الصحيح هو الذى يسمو بالروح، ويرتفع بها إلى مدارج النور.

وقد برز هذا اللون من التصوف، وانتشر بفضل الإمام (أبى حامد الغزالى) فى القرن الخامس الهجرى، الذى دعم هذا العلم، بعد حملته الشهيرة على الفلسفة والفلاسفة، على أساس أنهم يهيمون فى أودية الظنون، وأن كثيرا من اتجاهات الفلسفة وخاصة تلك التى تتعلق فيما وراء الطبيعة ضرب من العبث. لقد أرسى الإمام الغزالى دعائم التصوف السنى، وابتعد عن التصوف الذى له روافد فلسفية أو أجنبية، وبفضل الإمام الغزالى أخذ التصوف فى مجاله العملى قفزات قوية إلى الإمام فى القرن السادس الهجرى، وتكونت الطرق الصوفية بمريديها وشيوخها منذ القرن السادس الهجرى. . أمثال أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٠هـ، وعبد القادر

الجيلانى المتوفى سنة ٦٥١هـ، كما ظهر بعدهم الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦هـ، وتلميذه أبو العباس المرسى المتوفى سنة ٦٨٦هـ.

وكانت الطرق الصوفية هى التطبيق العملى للتصوف النظرى ولا أقصد بالطرق الصوفية تلك التى تسبح فى الخرافات والأساطير وتقديس مشايخ الطرق.. فكل هذه الأمور دخيلة على التصوف الصحيح.. فالتصوف الصحيح هو الالتزام بالكتاب والسنة، وإذا كان للبعض كرامات، والكرامات لا تستغرب عليهم، ولكن ليست الكرامة سوى إشعار الصوفى أنه قريب من ربه، ولكن ليست مدعاة للزهو أو الكبرياء وليست وسيلة لتكسب المريدين.. بل إن المتدين الحقيقى هو الذى يبغى من وراء عبادته وصفائه إخلاص القلب لله.. لأن الغاية عندهم هو ما ورد فى قوله تعالى:

﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]

وكان الشاذلى يقول:

«أرجع عن منازعة ربك تكن موحدا، واعمل بأركان الشرع تكن متشرعا، واجمع بينهما تكن محققاً».

والصوفى على حد تعبير السرى السقطى:

التصوف اسم لثلاثة معان: أن لا يطفئ نور معرفة الصوفى نور ورعه، ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله.

فالصوفى الحقيقى إذن لابد أن يكون ملما بالكتاب والسنة، ويسير على نهجهما . . وهذا يتطلب منه أن يكون على علم، وهذا لا يمنع أن يهبه الله من العلم اللدنى ما يضئ له طريقه.

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول:

«رب عابد جاهل، ورب عالم غافل، فاحذروا الجهال من العباد، والغافلين من العلماء».

ولا يعرف قيمة الصوفية إلا من عايشهم وسار طريقهم، ونهج نهجهم حتى يمكنه أن يتذوق ما يتذوقونه من مواجيد تستعصى فى بعض الأحيان على اللغة . . أو بمعنى أدق . . فإن اللغة لا تسعف عن تجسيد ما يحسونه وما يشعرون به.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يروى حديثا عن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول:

«إن من عباد الله أناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله عز وجل».

ومن أجمل ما قيل عن التصوف ما قاله الأستاذ محمد فريد وجدى فى دائرة معارفه:

«إن التصوف مذهب أو علم الغرض منه تصفية القلب من غير الله والصعود بالروح الى عالم التقديس وإخلاص العبودية للخالق، والتجرد بالقلب عمن سواه، وهو نزعة قديمة كقدم النزعة التى

أوجدته، فإن الانسان منذ آلاف السنين أدرك أن خلف هذا الغلاف الجسمانى، سر روحانى ووراء مظاهر الكون سر إلهى، ونشأ هذا المذهب فى العرب وغير العرب منذ آلاف السنين».

وإذا كنا نسمع عن الأحوال والمقامات عندهم فإن ذلك سمة من سماتهم.



٢- محظورات التصوف

إذا فهمنا التصوف على أنه طريق الإحسان كما فهم صوفية الاسلام.. الذين يستندون إلى الحديث الشريف:

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن فإنه فهو يراك».

فعلينا لكى نسير فى الطريق الصحيح دون أن نقع فى المحظورات أن نستبعد منه ما علق به، أو ما حاول البعض أن يربطوه به كوحدة الوجود، أو الفناء، أو الحلول، وكلها مفهومات لا يقرها الإسلام.. فالإسلام لا يقر بحال من الأحوال أن يكون الله هو مجموعة الموجودات.. كما يقول دعاة وحدة الوجود.. والله فوق كل شئ.. ولا يشبهه شئ.. ولا يمكن تصوره.. لأنه فوق الحواس.. وفوق الإدراك.. الله شئ آخر غير مخلوقاته.

أو على حد تعبير الشيخ أحمد حسن الباقورى:

«... وإذا أجاز المتصوف المسلم معنى من معانى الوحدة الوجودية، فهى عنده وحدة الفضائل الإلهية ووحدة التوحيد.. وقد يوفق المسلم الصوفى بين الظاهر والباطن فيقول: إن الشريعة من غير الحقيقة رياء وكذب، والحقيقة من غير الشريعة إباحة وفسوق، وقد يوفق بين الأمور الدنيوية والأمور الأخروية بمذهب جميل معتدل بين الطرفين، فليس الزاهد من لا يملك شيئا، بل الزاهد من لا يملكه شئ، فهو مالك للدنيا وليس مملوكا لها فى أى حال».

ويقول أيضا :

«ولقد ظل المتصوفة والمنتسبون إلى الطرق الصوفية من المتأخرين يبرأون من القول بالحلول ووحدة الوجود وإسقاط التكاليف، مع تصديهم لمن يقول بها على وجوهها المنقولة من الديانات الوثنية، حتى أنك لتجد ذلك فى القانون الذى استشير فيه شيوخ المتصوفة وصدر فى الديار المصرية بلائحة الطرق الصوفية سنة ١٣٢٠ هـ - ١٩٠٣م، وقد قررت المادة الثانية فى الباب الخامس من القانون المذكور: أن من يقول بالحلول أو الاتحاد أو إسقاط التكليف يطرد من الطرق الصوفية كافة».

فالمتصوفة المسلمون ـ إذن ـ لا يقولون بالحلول ولا بالاتحاد ثم هم إلى جانب ذلك - لا يصرفون أيات القرآن وكلمات النبوة عن ظاهرها إلى باطن يخترعونه اختراعًا من عند أنفسهم كلما حلا لهم أن يتفلتوا من قيود الدين ليسعوا إلى إفساد العقيدة الإسلامية على المسلمين.

ويضرب مثلا يتضح به الفرق بين أهل التلحيد من الباطنة الذين هم أعداء الله وأعداء رسوله، وبين أهل التوحيد الذين هم خاصة الله وخاصة رسوله، وهم المتصوفة التى أشار إليهم الحديث الشريف.

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فانه يراك».. فيقول :

يقرأ أولئك الملاحدة قول الله جل ثناؤه:

﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ [المائدة: ٦] ثم يحملون الجنابة فى الأية على أنها التسارع إلى إفشاء السر لمن يبدى استعداده لقبول دعوته إلى الفوضى والإلحاد باسم الدين، ويسند من القرآن الكريم، ثم يحملون التطهر على وجوب تجديد العهد على من فعل ذلك.

ويفسرون كلمة الصيام، بانها الإمساك عن كشف السر، والكعبة بأنها النبى، والباب بأنه علىٌّ، والتلبية بأنها إجابة الداعى، والطواف سبعا بأنه الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة، ونار إبراهيم بأنها غضب نمروز وليست النار الحقيقية، ويفسرون عصا موسى بأنها حجته التى تلقف شبهات سحرة فرعون، وانغلاق البحر بأنه افتراق علم موسى فيهم، ويفسرون الجن الذين ملكهم سليمان بأنهم الباطنية فى زمانه، ويفسرون الظاهرية بأنهم هم الشياطين الذين كلفوا بالأعمال الشاقة.

ثم يقرأون قول الله جل ثناؤه، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٣]

ثم يصرفون الآية الشريقة عن معناها الذى أنزلت من أجله، إلى معنى ترضاه الباطنية وتستغله بين العامة والغوغاء ويجارون به نزواتهم وشهواتهم، فيقررون أن الذين أجرموا هم الذين يسخرون من أهل التصوف، وأن الذين أمنوا هم المتصوفة الذى يسخر منهم

الساخرون، وبهذا يحرفون الكلم عن مواضعه تحريفا يفقد به القرآن سلطانه على المسلمين وغير المسلمين، وهو الكتاب الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ويرى الشيخ الباقورى أن أهل التصوف بحق لا يذهبون هذا المذهب فى صرف القرآن عن ظاهرة صرفا يجارون به أهواءهم وشهواتهم ونزواتهم، ثم يزعمون أن ذلك هو المعنى المقصود بالقرآن الكريم، وغاية ما يأتون فى هذا الباب أنهم مع أخذهم فى معانى الأيات بما تقتضيه اللغة وتنصره مقاصد الشريعة، يعتبرون إلى جانب ذلك معنى لا يناقض هذا المعنى فيقرأون الأية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا...﴾ الأية ثم يفهمون ما يفهمه أهل التفسير الموثوقون فى كتاب الله لا يختلفون عنهم فى شئ إلا أن يكون هذا الاختلاف قائما على أنهم حين يقرأون الأية ويفهمونها بمنطق السلف من هذه الأمة يرتفع فى أنفسهم معنى يدور حول سخرية غير المتصوفة بالمتصوفة، على نحو ما كان يتعامل به- فى عهد النبوة- الذين أجرموا مع الذين أمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فذلك هو الفرق بين الباطنية من أهل التلحيد، وبين المتصوفة من أهل التوحيد.

ويسوغ هذا المذهب، ما يعرفه أهل العلم عن أمير المؤمنين (عمر) من الزهد فى الطيبات، والتوسع فى الأخذ بحظوظ النفس، وهو يقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف : ٢٠]

فقد كان رضى الله عنه يقول لبعض من توسع فى الدنيا من أهل الإيمان: أين تذهب بكم هذه الأية، مع علمه بأنها قد أنزلت فى الكافرين، ومع علمه بقول الله جل ثناؤه:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢]

ووجه القدوة بأمير المؤمنين فى هذا الموطن، أنه رضى الله عنه كان يقع فى نفسه معنى الأية يجارى المعنى الذى سيقت فيه ومن أجله، ولم يكن ذلك إلا من باب الزهادة والتقشف، وإلا فإن الله تعالى قد أحل للمؤمنين الطيبات من الرزق.

ولعله كان يرى أن التوسع فى الأخذ بحظوظ النفس كاملة مما يجعل الرغبة تتطلع إليه، فكلما رأته متقشفا زاهدا قاسيا على نفسه، كان ذلك أرض لها، وأصون للأمن فيها، وصدق الذى قال:

(إن مرقعة عمر كانت أهيب من سيف الحجاج).

هذا ما يتصل بجانب العقيدة عند أهل التصوف وهو ـ على ما يرى الناظر المنصف ـ أمر سائغ، لايناقض اللغة ولا ينبو عن مقاصد الشريعة».

فالتصوف السليم . . المستمد من الكتاب والسنة، ودون مغالاة لا غبار عليه، وإنما الغبار على من يجنحون نحو فلسفات دخيلة عن الإسلام وروح الإسلام، وهنا نجد المحاذير التى يجب أن يبتعد عنها كل من يريد أن يلتزم طريق الشريعة الغراء، لأن الشريعة والحقيقة وجهان لشئ واحد عند الذين يفهمون التصوف فهما صحيحاً.

ولهذا فإن العلم هو مبتغاهم، حتى لا يقعوا فى المحظورات.

ويقول «أبو مسلم الخولانى»:

العلماء ثلاثة:

عالم عاش بعلمه وعاش الناس معه.

وعالم عاش بعلمه، ولم يعش الناس معه.

وعالم عاش الناس بعلمه وأهلك نفسه.

فالعلم هو العاصم من الوقوع فى الزلل . . لأن من يعرف كتاب الله وسنة الرسول، سوف يبعد عن طريق الأخطاء التى تحدق ببعض رجال الصوفية، ومن هنا فقد كان أحدهم (وهو إبراهيم التيمى) يدعو بهذا الدعاء:

«اللهم اعصمنى بكتابك، وسنة نبيك من اختلاف فى الحق، ومن اتباع للهوى، ومن سُبُل الضلالة، ومن شبهات الأمور، ومن الزيغ واللْبس».

وعندما ترى الصوفى بهذه الصورة . . صورة الإنسان الذى يتوجه بكل كيانه إلى الله، يستلهمه الهدى والرشاد، ويطلب منه

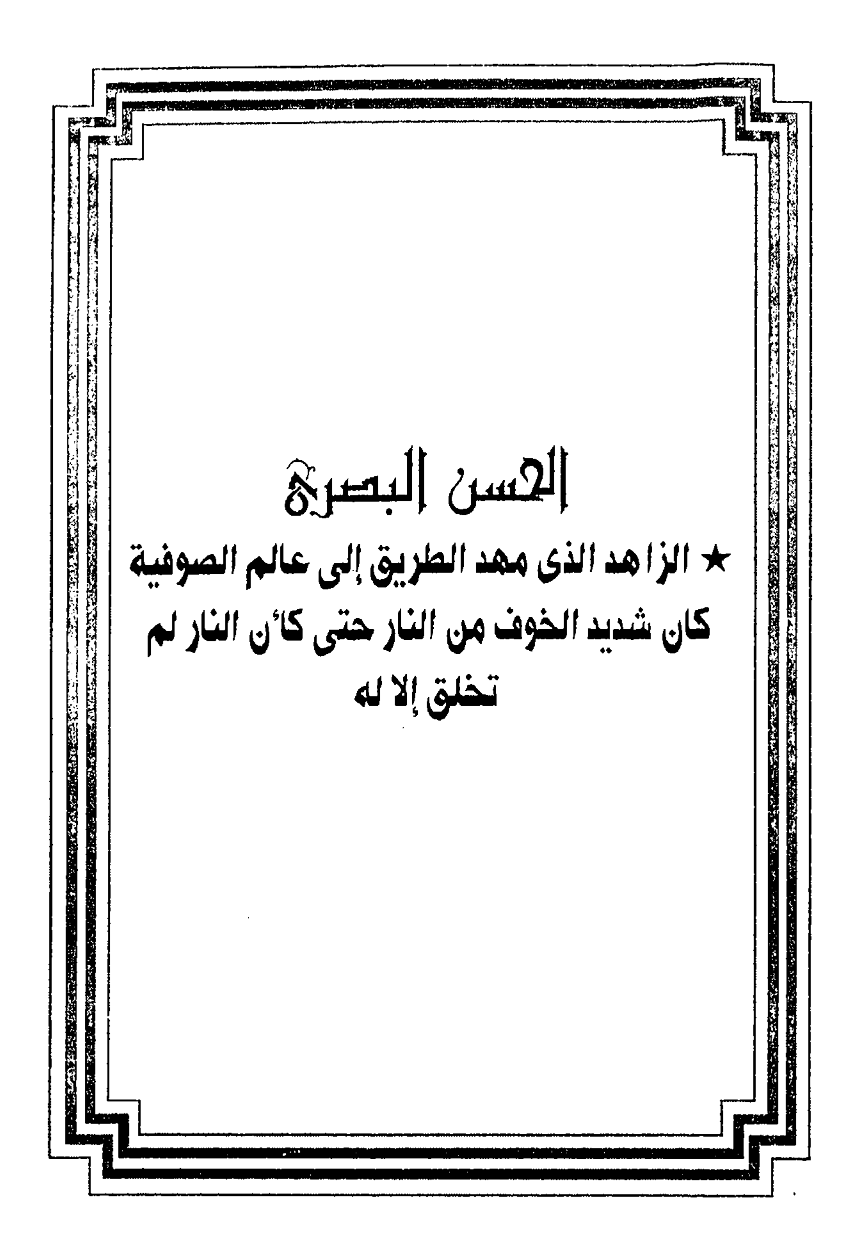
الاقتراب منه بعمل الحسنات، والبعد عن السيئات، والعمل بالحلال، والبعد عن الحرام.. من خلال معرفته بما أحل الله وبما حرم.. عندما تعرف كل هذا نعرف أن الصوفية الحقه هى التى تنهج الطريق السليم ومنتهى آمالهم، كما يقول إبراهيم النخعى:

«من أحسن الله صورته، ووسع رزقه، وبوأه منصبا صالحا، ثم أدى حق الله فى كل هذا وتواضع، كان من خاصة أهل الله».

ومع خاصة الله نقف على بعض سيرهم التى سماها الإمام الغزالى بأنها أحسن السير، ونجوب معهم عوالمهم التى تجمعها الإخلاص والنور، مبتعدين عن كل ما يحول دون شفافية أرواح هائمة بحب الله، لاتبغى ولا ترى بديلا عن الحب الإلهى الذين يعبرون به ومن خلاله إلى مدارج لا تخطر على البال، عوالم يحسونها بقلوبهم النقية، ونفوسهم الطاهرة، وأرواحها التى تسمو إلى مالا يمكن تخيله ولا حتى بمقاييس الخيال.

مهما يكن من شئ فإن الإبحار فى عالم الصوفية، هو إبحار الى أطهر العوالم وأنقاها.. ونعيش من خلالها مع أحباب الله وأهله فى مسيرة معطرة.. نرى من خلالها نفوسا عاشت لله وبالله، فكانوا نور هداية وقدوة لكل من يريد أن يسلك طريق الله.. حيث الإحساس بأجمل المشاعر، وحيث البحث عن الحب الإلهى.. ذلك الحب الذى يطهر النفس، ويسمو بالروح.. إلى معارج النور.





الحسن البصري

★ الزاهد الذى مهد الطريق إلى عالم الصوفية كان شديد الخوف من النار حتى كأن النار لم تخلق إلا له

قبل الدخول فى عالم هؤلاء الأبرار المسافرين دوما نحو الله، المهاجرين إليه.. والذين لايبغون سواه.. إليه يتوجهون، وعليه يتوكلون.. ولا تساوى الدنيا كلها عندهم جناح بعوضة.. هؤلاء الناس كان يطلق عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام أنهم (أهل الله)..

وهؤلاء الناس عاشوا حياتهم فى حب الله لأنهم يتطلعون إلى ماعنده.. وحبهم لله جعل أشواقهم إليه قوية، فأحبوا عبيده، وكان الحب هوالأريج الذى يعطى لحياتهم معنى.. فلا قيمة للحياة فى نظرهم إلا إذا كانت وسيلة لغاية.. والغاية هى الحب الإلهى.. فعملوا بكتاب الله وسنة رسوله.. وفى رأيهم أن الذين لايعملون بما جاء فى الكتاب والسنة دجالون حتى ولو مشوا على الماء أو طاروا فى الهواء. أو على حد تعبير الإمام مالك رضى الله عنه:

(من تشرع ولم يتصوف فقد تفسق، من تصوف ولم يتشرع فقد تزندق، ومن تشرع ثم تصوف فقد تحقق).

وهذا يعنى أن العابد الحقيقى هو الذى لا يحيد عن شرع الله. وقارئ حياة هؤلاء الناس يرى عجبا.. يرى أرواحا هائمة فى حب الله، وأجساد وهنت فى سبيل الله، فكانوا مصابيح هدى، ونور هداية لمن يريد أن يطهر نفسه، ويزكى روحه.. إنهم المهاجرون دوما إلى الله.

* * *

ونبدأ رحلتنا الميمونة مع أحد أقطاب الزهد فى الإسلام وهو أبوالحسن البصرى . . .

الزهد هو المرحلة التى سبقت التصوف الاسلامى ومهدت له، ولم يأت هذا الزهد من فراغ، فهو ليس فلسفة اخترعها البعض، ولكنه مستمد من الكتاب والسنة فقد وجد الزهاد فى كتاب الله وسنة الرسول القدوة فى زهدهم وبعدهم عن متاع الحياة الدنيا والإقبال بقلوبهم وعقولهم على الله. . ولا يعنى الزهد البعد عن الدنيا. وعدم المشاركة فيها، وإدارة الظهر لها، وإلا كانت هروبا. . ولكنه هدف ليحقق به الإنسان ذاته. . فلا يصبح عبدا للحياة. . ولا عبدا لما فيها. . ولكنه بالزهد يتغلب على أهواء النفس، وشهوات البدن. . فتصبح الحياة ملكا له. . وليس هو عبدا لها. .

وقد وجد هؤلاء الزهاد فى سلوك الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام قدوة. .

فقد كان عليه الصلاة والسلام قبل أن تأتيه الرسالة دائم التفكير والتأمل فى الكون، ويتحنث فى الأيام ذوات العدد من شهر رمضان إلى أن جاءه وحى السماء. . فدعا إلى الاسلام، وجاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله. . .ومع ذلك لم يعرف عنه الترف ولا الإقبال على الدنيا رغم أن الله سبحانه وتعالى قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر. . .حتى أن عائشة عندما سألته عن كثرة عبادته وعن قيامه الليل حتى تتورم قدماه. .

ـ لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر؟.

فرد عليها أعظم رسل السماء

«أفلا أكون عبدا شكورا».

وكان أصحابه كذلك.. يحبون الزهد.. وترتاح قلوبهم إليه فها هو أبوبكر الصديق يقول:

«إذا دخل العبد العُجب بشئ من زينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة».

وها هو خليفته العظيم عمر بن الخطاب الذى كان مثالا للتقوى والزهد رغم أنه دانت له بلاد الفرس ومعظم بلاد الروم.. حتى رددت الدنيا ماقاله عنه طلحة بن عبيد الله:

ما كان عمر بأولنا إسلاما، ولا أقدمنا هجرة، ولكنه كان أزهدنا فى الدنيا، وأرغبنا فى الأخرة».

وكان عثمان رضى الله عنه رغم ثرائه الكبير فهو الذى جهز جيش العسرة، وهو الذى اشترى بئر من أحد اليهود ووهبه للمسلمين.. فهو كان يملك المال ولم يملكه المال، وأنفق منه الكثير فى سبيل الدعوة.. ومع كل ذلك.. كان شديد الخوف من الله.. شديد العبادة.. يكثر من قراءة القرآن، حتى أنه قتل وهو يقرأ فى كتاب الله الكريم..

وكذلك نجد الإمام علىٍّ بن أبى طالب . . مثالا للزهد والتقوى وعدم التكالب على الدنيا، حتى عندما أصبح الخليفة الرابع للمسلمين، كان شديد الزهد فى الدنيا . . شديد الخوف من الله . . حتى أنه صور نفسه وهو يلوى عنقها . . حتى يسلس قيادها للعبادة . .

« ما أنا ونفسى إلا كراعى غنم، كلما ضمها من جانب انتشرت من جانب » .

والزهاد وجدوا بجانب القدوة فى رسول الله وصحابته الكرام، مدى احتفاء النبى لأهل الصفة الذين انقطعوا للعبادة فى أيام الرسول . . وكان بعضهم من الأنصار والبعض الأخر من المهاجرين، ولم يكن يملكون من متاع الحياة شيئا . . وفيهم نزل قوله تعالى :

﴿ واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف ـ ٢٨]

كل هذا مهد لقيام جماعة من الزهاد عطر التاريخ بأسمائهم . . وعطر بمواعظهم . . ووجد فى سيرة حياتهم نماذج لأناس قهروا ما فى الحياة مما يذل الإنسان . . عندما يحنى هامته للترف أوالجاه أو متع الحياة . . لقد كانوا أنوار هداية لكل من ينشد ما عند الله . . ويكونون عبيدا لله . . لا عبيدا للدنيا . . عاملين بما جاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل قوله :

« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . .

وربما كانت الظروف السياسية التى حدثت فى نهاية حكم عثمان رضى الله عنه، وما نتج عن ذلك من فتنة كبرى عمت العالم الإسلامى كله عقب استشهاده . .

فهناك من تشيع للإمام علىٍّ بن أبى طالب . . وهناك من طالب بدم عثمان وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان . . ثم كانت الحرب الأهلية فى الإسلام بين علىٍّ ومعاوية، وظهور الخوارج . . كل هذه العوامل ساعدت أن تظهر طبقة تريد أن تنأى عن هذا الصراع الدامى . . فزهدوا فى الدنيا . . وما فيها من انقسامات سياسية وآراء بعدت بالإنسان عن جوهر الدين السليم كما فعل الخوارج . . ومن هنا ظهرت مدارس الزهد المختلفة . . وكان أشهرها مدرسة ظهرت فى البصرة وأخرى ظهرت فى الكوفة . . ومن أشهر متصوفة البصرة الحسن البصرى . .



ولد أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن فى المدينة سنة ٢١هـ، وأمه كانت مولاه لام سلمة زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام، فلم يكن غريبا أن يتشرب بحب الإسلام منذ نعومة أظافره، وأن يأخذ العلم من الصحابة فقد نشا فى مدينة رسول الله التى كانت تعج بهولاء الذين صاحبوا الرسول. وأخذوا منه العلم وسلكوا طريقه، وعرفوا كيف كان عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الإسلام بالحسنى،

متخلقا بخلق القرآن الكريم. . حتى أنه قال معبرا عن هذه الفترة من حياته التى عاشها مع من عاشوا تحت أضواء الرسالة الخالدة:

أدركنا أقواما كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم».

لقد اعترف الحسن البصرى أنه اغترف علمه عن (حذيفة بن اليمان). وهو صحابى جليل زاهد تقى، عندما عينه عمر بن الخطاب واليا على المدائن، وانتظره الناس فوجدوا عجبا، إنسان شديد التواضع، يركب حمارا، وفى يده كسرة من الخبز وبعض الملح. .

وكان أول ما نصح به الناس البعد عن مواقف الفتن، وعندما سألوه عن مواقف الفتن قال لهم: أبواب الأمراء. . يدخل أحدكم على الأمير أو الوالى فيصدقه بالكذب، ويمتدحه بما ليس فيه.

لقد تربى أبو حذيفة فى أعظم مدرسة عرفها الإسلام، أستاذها الأعظم محمد بن عبد الله. وهو الذى يروى عنه هذا الحديث الجليل. . فيقول: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى. .

قلت: يا رسول الله، إنما كنا فى جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير. . فهل بعد هذا الخير من شر؟

قال: «نعم»

قلت: فهل بعد هذا الشر من الخير؟

قال: «نعم، وفيه دَخَن».

قلت: وما دخنه؟

قال: «قوم يستنون بغير سنتى، ويهتدون بغير هديى، تعرف منهم وتنكر».

قلت: وهل بعد ذلك الخير من شر؟

قال: «نعم دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها».

قلت: يا رسول الله، فما تأمرنى إن أدركنى ذلك؟

قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم».

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

قال: «تعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك».

وحذيفة بن اليمان هو الذى صاحب الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فى معاركه، وهو الذى خاض المعارك خارج حدود شبه الجزيرة العربية يوم اشترك فى قتال الفرس وأبلى فيه بلاء حسنا.. وهو صاحب هذه الحكمة:

ليس خياركم الذين يتركون الدنيا للآخرة، ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا.. ولكن الذين يأخذون من هذه.. ومن هذه..!

هذا الصحابى الجليل هو أستاذ الحسن البصرى الذى اقتفى أثره فى معرفة الشر حتى يتجنبه، ومعرفة الخير حتى يعرفه ويسير على نهجه..

ويروى الرواة عن حذيفة أنه عندما حضرته الوفاة، وطلب من أصحابه أن يروه الكفن الذى سيخرج به من هذه الدنيا، ووجده جديدا فقال لهم:

- ما هذا لى بكفن.. إنما يكفينى لفافتان بيضاوان ليس معهما قميص.. فإنى لن أترك فى القبر إلا قليلاً، حتى أبدل خيرا منهما أو شرا منهما..

وكانت آخر كلماته: مرحبا بالموت.. حبيب جاء على شوق.. لا أفلح من ندم..

* * *

كان الحسن البصرى شديد الخوف من الله حتى قيل عنه أنه شديد الخوف من النار حتى لكأن النار لم تخلق إلا له!.

فكان مع تلاميذه شكلوا مدرسة للزهد شعارها الخوف من الله.. فهم يعملون حتى ينالوا ثواب الله، ويتوج أعمالهم بالجنة والتى فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر..

ولكن الخوف الذى كان يتسم به الحسن البصرى ساقه إلى الحزن.. حتى أنه عبر عن ذلك بقوله:

«إن المؤمن يصبح حزينا، ويمشى حزينا، ولا يسعه إلا ذلك، لأنه بين مخافتين:

بين ذنب مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه.. وبين أجل قد بقى لا يدرى ما يصيبه من المهلك؟».

والخوف من الله ماذا يعنى؟

يعنى أن يتجنب ما حرمه الله.. فلا يقترب من الحرام.. ولا يقارف الإثم.. ويكون القرآن الكريم وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام هما الأهل والمبتغى.. وإذا ما اعترى الإنسان الخوف من ربه، فلا يمكنه أن يقترب إلى كل ما يقربه إلى النار.. بل يعمل ما يقربه إلى نعيم الجنة.. وكلما تعمق الإنسان فى معنى الحلال ومعنى الحرام.. انتابه الخوف أن يقترف ما يجعله يندم على ما قدمت يداه.. وقد ساقه ذلك إلى قوله:

«الرجاء والخوف مطية المؤمن».

وقال أيضا:

«إن المؤمن يصبح حزينا، ويمضى حزينا، ويتقلب باليقين من الحزن، ويكفيه الكف من الثمر والشربة من الماء!»

وطالما نصح تلاميذه.. ونصح الناس ألا تغرهم الدنيا بما فيها من مفاتن وما فيها من إغراءات، فهى ظل زائل، ولم يكُتب لأحد فيها الخلود.. فهى سحابة سرعان ما تنقشع.. ولا فائدة ترجى منها إلا ما يقدمه المرء فى رحلة حياته القصيرة من عمل فى رضاء الله، وفق ما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام.. وما عدا ذلك فلا قيمة لهذه الدنيا.. ومن هنا نراه يقول:

«يا ابن آدم أنت اليوم فى دار هى لاقطتك، ثم تفضى بأهلها إلى أشد الأمور وأعظمها خطرا، فاتق الله يا ابن آدم، وليكن سعيك فى دنياك لآخرتك، فإنه ليس لك من دنياك شئ إلا ما صدرت أمامك ولا تدخرن عن نفسك مالك، ولا تتبع ما قد علمت أنك تاركه خلفك». .

فالهدف من الدنيا فى نظره أن تكون وسيلة لعالم خالد لا يفنى.. عالم خالد خلودا أبديا.. والخلود الأبدى لابد أن ينعم فيه الإنسان.. والنعيم فى الجنة تلك التى وعد بها الله عباده المتقين.. وعباده هم الذين يعملون الخيرات ويتجنبون الخبائث..

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]

فالطريق إلى الجنة يحتاج الى الزهد فى دنيا لا تدوم، وحياة مصيرها إلى الزوال.. إنه يصيح فى الناس ليعوا هذه الحقيقة البسيطة والسهلة.. ومع بساطتها فهى تخفى على الناس فيقبلون على الدنيا وكأنهم سيخلدون فيها مع أنها ظل زائل..

يقول الحسن البصرى:

«يا ابن آدم عملك.. عملك فإنما هو لحمك ودمك».

فانظر إلى أية حال تلقى عملك.. لأن لأهل التقوى علامات يعرفون بها:

- صدق الحديث...

- والوفاء بالعهد . . .

- وصلة الرحم . . .

- وحسن الخلق . . .

- وسعة الخلق . . مما يقربك الى الله عز وجل وهو القائل :

«بئس الرفيقان الدرهم والدينار ، لا يرافقانك حتى يفارقاك» .

* * *

ما أكثر الروايات التى تروى عن هذا الرجل وما أكثر الحكايات التى يحكيها الرواة عن هذا الزاهد التى امتلأت بها كتب الزهد والتصوف . .

وهذه الحكايات تبرز لنا كيف كان هذا الرجل شديد الورع . . شديد الخوف من الله . . حبب الناس فى ضرورة أن تكون أموالهم التى فى يدهم تكون فى خدمة من يحتاج إليها . . وأن على الأغنياء أن يؤدوا على الأقل حق الله فى زكاة المال ، والصدقة ، حتى يملكوا المال ، لا أن يتملكهم المال . .

رأى ذات يوم رجلاً يأكل بين المقابر فتعجب وقال للرجل : أما فى حال هؤلاء الأموات ما يكفيك عن تذكر الأكل !

وعندما بنى أحدهم قصرا ، دعا إلى زيارته فيه الحسن البصرى ونظر الحسن إلى القصر من الخارج ومن الداخل ، وأذهله ما فيه من فخامة ، وكأن صاحبه سيعيش أبد الدهر ، وتداعت إلى ذهنه خواطر

عدة . . لماذا لا يبنى لأخراه ما بناه لنفسه فى دنياه . . وقال له :

«أخربت دارك وعمرت دار غيرك . .

لاغرك من فى الأرض، ومقتك من فى السماء . .

طأ الأرض بقدمك فإنها بعد قليل قبرك. إنك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك» . .

وكان الحسن البصرى بجانب زهده فى الدنيا عالما . . متفقها فى الدين، ولكن النزعة الروحية عنده كانت قوية جدا، حتى أصبح الحزن والخوف من الله من نسيج تكوينه النفسى . . فهو القائل «إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا، البصير بذنبه المداوم على عبادة ربه» . .

وقال عنه ابن أبى الحديد:

وكان الحسن البصرى لايراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة وذلك من شدة حزنه وخوفه .

* * *

إن الحسن البصرى الذى توفى سنة ١١٠هـ وأسس مدرسة فى الزهد كانت بداية البلورة ما أطلق عليه فيما بعد التصوف .

والتصوف الذى يعنينا هو التصوف الإسلامى الذى يستمد مقوماته من الكتاب والسنة، ولا نقصد به التصوف الفلسفى الذى استمد بعض روافده من فلسفات دخيلة على الاسلام .

ومن رأى الدكتور جمال الدين الرمادى أن الحسن البصرى لم

يكن متصوفا بالمعنى المعروف، إنما كان زاهدا عابدا، والزهد غير الفقر والتصوف.

ويقول السهروردى فى كتابه (عوارف المعارف):

إن التصوف اسم جامع لمعانى الفقر والزهد، ولكن بزيادة أوصاف وإضافات بدونها لايكون الصوفى صوفيا، ولو كان زاهداً فقيراً.

فالتصوف أعلى من الفقر والزهد، وإن كان منطويا عليهما ومستندا إليهما، لأنهما يمهدان إلى النفحات الروحية، والإشراقات الإلهية، والتصوف علم لبواطن القلوب.

وقد تعددت أقوال الصوفية وتباينت تعريفاتهم فى مفهوم معنى التصوف وتفرقوا فى ذلك شيعا وأحزابا فى القرون المختلفة..

ومن رأيه أيضا: أن الحسن البصرى لم يكن متصوفًا إنما مهد لظهور التصوف بما سلكه من سلوك الزاهد المتبتل وبما تفوه به من حكم كالدر المنثور، والزهر المنضود حتى قال الجنيد المتصوف فى تعريف التصوف:

«هو أن يتمكن الحق منك، ويحييك به وتكون مع الله بلا علاقة».

كما قال أخر:

« هو استرسال النفس مع الله على ما يريد».

وقال سهل:

الصوفى من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله

دون البشر، واستوى عنده المال والمدر.

وقال السهروردى:

الصوفى هو الذى يكون دائم التصفية لا يزال يصفى الأوقا
شوائب الأكدار بتصفية القلب عن ثوب النفس، ويعينه علي
التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينقى من ال
وكلما تحركت النفس، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها بب
النافذة، وقدمها إلى ربه، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلب
نفسه، قال الله تعالى:

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾. . [المائدة: ٨]

ومن يتأمل هذه الأقوال يلاحظ أنها لا تختلف كثيرا عن
الحسن البصرى فى الحياة والزهد، وتطهير النفوس، وإيثار الف
الله عز وجل، بيد أن الحسن كان يطوى هذا كله بغلالة من
والرهبة والأسى الحزن وهكذا، كما كان يميزه زهده وتعبده.

وقال الغزالى:

كان الحسن أشبه الناس كلامًا بكلام الأنبياء، وأقربهم هد
الصحابة، اتفق العلماء فى حقه على ذلك». .

وقال ابن عربى:

«الحسن عندنا من أئمة أهل الطريق الى الله جل جلاله
أهل الأسرار والإشارات.

ونظر إليه راهبان فقال أحدهما لصاحبه:

بنا إلى هذا الذى سمته سمة المسيح فعدلا إليه، فألقياه مفترشا لذقنه راكعا وهو يقول:

يا عجبا لقوم أمروا بالزاد، وأذنوا للرحيل ما الذى ينتظرون؟

ومن أحسن كتب حسن البصرى كتاب أدب الدين والدنيا الذى يعتبر ذخرًا نفيسًا فى الأدب الإسلامى الكريم والخلق الإنسانى الفاضل.

* * *

هذا هو الحسن البصرى.. الذى امتلات بحكمه كتب الأقدمين ورددتها بعدهم مختلف الأجيال فى مختلف العصور.

ومن أجمل ما قرأته عن أهل الله، ما كتبه عنهم كاتبنا الإسلامى الكبير خالد محمد خالد فى كتابه (والموعد الله)... وهذا الفهم عن الله،أفاء على (أهل الله) تلك النعمة التى تخصصوا فيها وعرفوا بها ـ نعمة الزهد والورع.

لقد كان موقفهم من مناعم الحياة، بل ومن ضرورتها، مثار العجب والحديث الطويل من الذين عنوا بدراسة تاريخهم.

لقد بهروا الدنيا بطريقة استغنائهم عنها وزهدهم فيها.. لقد كانوا يرفعون أبصارهم فوق أسهم القريب، فيرون طائقة كبيرة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، قد أجادوا فن الزهد فى الدنيا، والترفع عن إغرائها، فصمموا أن يتبعوهم على نفس الطريق.

يقول الحسن البصرى:

(والله) لقد أدركت سبعين بدريا- ممن شهدوا غزوة بدر- أكثر لباسهم الصوف. . لو رأيتموهم لقلتم: مجانين.

ولو راكم خيارهم لقالوا: ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا شراركم لقالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب.

ولقد رأيت أقواما كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه.

يمشى أحدهم، وما يملك إلا قوتا كفافا فيقول:

لا أجعل كل هذا فى بطنى، والله لأجعلن بعضه لله، ويتصدق ببعضه،، وهو إليه محتاج»!

وأصحاب رسول الله و(أهل الله) من بعدهم معذورون فى فزعهم الشديد من الدنيا، فطالما أنصتوا للقرآن الكريم يحذر منها. . وينعتها بدار الغرور.

ثم أن سيرة نبيهم عليه الصلاة والسلام أمامهم تريهم كيف كان يقضى الشهرين والثلاثة لا توقد فى بيته نارًا تطهو طعاما. . وكيف كان ينام على حشية من لوف. . وكيف كان بعد أن فتحت عليهم الدنيا وكثرت مغانمها يحرم نفسه وأحب الناس إليه (فاطمة) بنته وأهل بيته الأقربين من كل نعيم، مكتفيا منها له ولأهل بيته بالشظف والكفاف!

لقد كان فى أصحاب الرسول كذلك من لم يحرم نفسه من طيبات الحياة مادام يؤدى حق الله فيها، ومادامت لا تلهيهم عن ذكره وعبادته.

ولقد ورث (أهل الله) كلا الاتجاهين، وأضفى كل فريق على اتجاهه روح فلسفته وتفكيره.

بيد أنهم متفقون على ضرورة الحذر منها، وعدم الثقة بها، فوظيفتها الحقيقية عندهم أنها المكان والزمان اللذان منحهما العبد الصالح ليهيئ من خلالهما لنفسه غدا أبديا خالدا وصالحا عند الله رب العالمين.

أما ما وراء ذلك، فهى أكذوبة كبرى، أو هى على أحسن الفروض والأوصاف.

«يقين لاشك فيه أشبه بشك لا يقين فيه!»

وهم يحذرونها لأنها فى حقيقتها غرور.

* * *

ما أجمل سيرة الحسن البصرى.

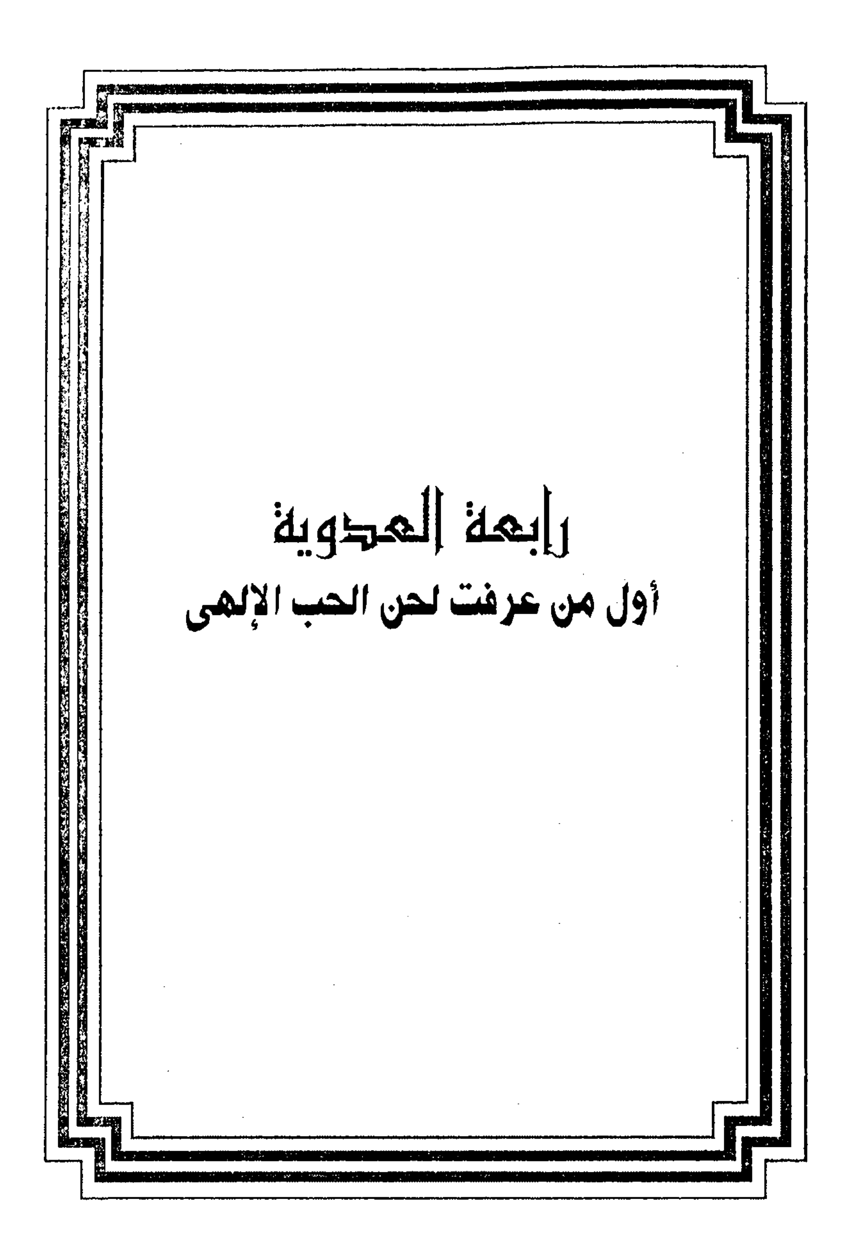
وما أروع الحقيقة التى توصل اليها وهو يقتدى برسوله العظيم. . وهو أن حبه لله دفعه إلى العمل على ما يقربه إليه.

وقد كان الإمام أبو حامد الغزالى حصيفا. . صادق الحدس عندما تحدث عن سبب تفاوت الناس فى الحب الإلهى بقوله:

«أعلم أن المؤمنين مشتركون فى أصل الحب لاشتراكهم فى أصل المحبة، ولكنهم يتفاوتون فى المعرفة، وفى حب الدنيا، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التى قرعت سمعهم فتلقفوها وحفظوها، وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الأرباب، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق، واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث، وهؤلاء أهل السلامة من أصحاب اليمين، والمتخيلون هم الضالون، والعارفون بالحقائق هم المقربون، وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة فى قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨: ٨٩]

* * *



رابعة العدوية

أول من عرفت لحن الحب الإلهى

لقد سلكت رابعة العدوية طريق حب الله. . فقد عاشت منذ أن عرفت الطريق إلى الله وروحها هائمة فى الحب الإلهى، وقصة حياتها بعيدا عن الأساطير التى حيكت حولها قصة بالغة الروعة والجمال والجلال.

فقارئ سيرة حياتها سوف يتوقف طويلاً أمام هؤلاء الذين عاشوا لله وفى الله. . وكيف عاشوا فى رضا من الله ومن الناس، لأن من أحب الله سوف يحبه الله، ومن أحبه الله سوف يحبه الناس.

قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه، ومن لم يحب لقاء الله لم يحب الله تعالى لقاءه».

* * *

كانت رابعة العدوية رائعة الجمال. . وقد عاشت فى البصرة وكانت مولاة لبنى عتيك. . وقد ولدت فى البصرة كما قال الذين أرخوا لها فى عام ٩٥هـ أو٩٩هـ ولدت فى كوخ من أكواخ الفقراء. . وكان والدها رجلاً فقيرا وأسماها رابعة لأنها كانت الرابعة فى عدد بناته. . وكان الرجل عابدا زاهدا محبا لله ورسوله.

واسمها كما يقول ابن خلكان: أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية القيسية.

فقد كانت إذن مولودة فى القرن الثانى الهجرى.. وقد عاشت حتى بلغت الثمانين من عمرها بعد أن تركت أثرا روحيا خالدا فى الحياة الروحية للإسلام.

وفى ظل هذه الأسرة الفقيرة نشأت رابعة على العبادة فحفظت القرآن الكريم، وواظبت على الصلاة وكانت بارعة الجمال.. وصاحبة صوت بالغ الروعة.. كما قال عنها الذين تحدثوا عنها أنها أيضا كانت بالغة الذكاء.

وقد مات والدها وهى مازالت صغيرة.. ولحقت به أمها.. وبعدها تفرقت البنات الأربعة، وعاشت كل واحدة منهن بعيدة عن الأخرى، وكان قد حدث هذا نتيجة قحط عم البصرة فى تلك الأيام.

ومضت الأيام ورابعة تخطو نحو الشباب.. إلى أن أخذها عنوة أحد تجار الرقيق وباعها، وأصبحت رابعة مملوكة لرجل فظ غليظ القلب.

ويروى الرواة وعلى رأسهم فريد الدين العطار.. انها ضاقت ذرعا بالحياة مع سيدها الفظ، وأنها كانت تشكو إلى الله وتبثه حزنها وأساها لأن الرجل أرغمها على مجالسة الغرباء والغناء لهم!

وأنها بينما كانت تجوب أزقة البصرة، شكت إلى الله أحزانها وماتعيشه من عذاب العبودية، فسمعت هاتفا يقول لها:

لا تحزنى ففى يوم الحساب، يتطلع المقربون فى السماء إليك يحسدونك على ما تكونين فيه.

وأمام هذه البشرى رجعت رابعة إلى سيدها، موقنة بأن الله معها، وأنه سوف ينقذها مما هى فيه. . وأن الأقدار لن تتخلى عنها.

عادت شخصية جديدة. . صابرة على ما أصابها. . منتظرة ما تأتى به المقادير. . وكانت أحب الساعات لديها عندما يخيم الظلام، فتجد فى الصلاة والدعاء إلى ربها سلوى، وتحس فى أعماقها بأنوار تملأ كيانها، وتجعل لحياتها معنى أخر.

وتقول بعض هذه الروايات. . أن سيدها استيقظ ذات مرة فى الليل. . وسمع صوت رابعة وهى تناجى ربها ـ جل علاه ـ وعندما نظر فى خلال ثقب الباب سمعها تقول وهى ساجدة:

إلهى. أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك ونور عينى فى خدمة عتبتك، ولو كان الأمر بيدى ما انقطعت لحظة من مناجاتك وخدمتك، ولكنك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبادك.

وسرعان ما وجد الرجل عجبا عندما شاهد قنديلاً معلقا فى وسط الحجرة، يضئ لها ظلام الليل. . هال الرجل ذلك واستيقظ ضميره، وأطلق سراحها، وقبل أن يطلق سراحها خيرها أن تعيش معه ويكون خادما لها أو تنطلق إلى حيث تريد، ففضلت أن تعيش حرة تعبد الله كما تشاء. . بعيدا عن دنيا الناس.

وودعت (رابعة) حياة الغناء التى طالما كانت حديث البصرة كلها، وأصبحت عازفة الناى، تشدو بأجمل قصائد العشق فى حب الذات الإلهية.

لقد آثرت أن تعيش فى كوخ.. ووجدت فى هذا الكوخ كل ما ترجوه من دنياها.. إنه يوفر لها العزلة عن الناس، ويوفر لها أن تكون وحدها مع الله تناجيه وتعبده ما طابت لها المناجاة والعبادة.

وكانت لمعرفتها بالزاهد (رباح بن عمر القيسى) أثرا كبير فى حياتها، فقد جعلها تتردد على أماكن الذكر، ومجالس الصوفية ومجالس العلماء، وقد استمعت إلى مواعظ شيخ البصرة« عبد الواحد بن زيد».. وتأثرت به.. وعرفت الزهاد والعباد.. وبدأت حياتها تأخذ شكلاً آخر.. فقد عرفت طعم الإيمان، وجلال العبادة، وروعة القرب من الله، ثم ذاقت طعم الحب الإلهى.. فعاشت لله وبالله..

* * *

ويذكر الرواة الكثير من عظاتها.

قال رجل لها: سليني حاجتك؟

فقالت: **إنى لا استحى أن أسال الدنيا ممن يملكها فكيف أسالها من لا يملكها!**

وفى كتاب(مدخل إلى التصوف الإسلامى) يحدثنا الدكتور أبو الوفا التفتازانى عن تطور الزهد على يد رابعة العدوية، ويحكى لنا الكثير من الحكايات العجيبة عن هذه العاشقة العظيمة لربها..

يروى عن رابعة أنها كانت تصلى الليل كله، فإذا طالع الفجر نامت فى مصلاها نومة خفيفة حتى يسفر الفجر. . ويروى أنها إذا هبت إلى مرقدها قالت:

يانفسى كم تنامين وإلى كم تنامين يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور.

وكان هذا دأبها حتى ماتت.

ونحن نجد عند رابعة أيضا إكثارا من البكاء والحزن شأنها فى هذا شأن بعض من تقدمها من الزهاد، فيذكر الشعرانى عنها فى طبقاته أنها كانت كثيرة البكاء والحزن، وكانت إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زمانا، وكان موضع سجودها كهيئة الماء من كثرة دموعها.

وكانت رابعة معاصرة للزاهد المشهور سفيان الثورى. ويروى أنه قال عندها يوماً: وأحزناه!

فقالت: لا تكذب بل قل: وافلة حزناه. . لو كنت محزونا ما تهيا لك أن تتنفس.

ولرابعة العدوية أقوال مأثورة فى معان كثيرة سيتناولها الصوفية المتأخرون فيما بينهم:

فمن ذلك كلامها فى التواضع إذ تقول:

ما ظهر من أعمالى فلا أعده شيئاً.

وروى الجاحظ فى (البيان والتبيين) أنه قيل لرابعة:

- هل عملت عملاً قط ترين أنه يقبل منك؟

فقالت:

إن كان شئ فخوفى من أن يُريد علىّ.

ومن ذلك كلامها فى الرياء إذ تقول:

اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم.

فهى لا تحب أن يتظاهر الإنسان بأعماله الحسنة. وكانت رابعة تنهى عن تتبع عيوب الناس لأن السالك إلى الله لابد أن يكون منصرفا إلى تعرف عيوب نفسه، وقد ذكر ابن أبى الحديد (فى شرح نهج البلاغة) عنها أنها كانت تقول:

إذا نصح الإنسان لله أطلعه الله تعالى على مساوئ عمله فتشاغل بها عن ذكر مساوئ غيره..

وكانت رابعة ترى أن توبة العاصى خاضعة أولا وأخيرا لإرادة الله أو بعبارة أخرى للفضل الإلهى، وليست بإرادة الإنسان، فلو شاء الله لتاب على العاصى، فقد قال رجل لرابعة:

إننى أكثر من الذنوب والمعاصى، فهل يتوب علىّ إن تبت؟

قالت:

لا.. بل لو تاب عليك لتبت.

وفكرة رابعة عن التوبة يمكن أن ترد إلى مصدر قرآنى هو قوله تعالى:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

ومن أقوالها فى معنى الرضا ما أورده الكلاباذى فى كتابه (التعرف) من أن سفيان الثورى قال عند رابعة:

اللهم ارض عنى.

فقالت له:

أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض. . وذلك إشارة منها إلى الرضا الذى يجب أن يكون بين العبد وربه مصداقا لقوله تعالى:

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقد لاحظ بعض الباحثين فى التصوف من المستشرقين مثل (نيكولسون) أن أهمية رابعة العدوية راجعة إلى أنها قد طبعت الزهد الإسلامى بطابع آخر غير هذا الذى رأيناه عند الحسن البصرى.

وهو طابع الخوف، فهى قد أضافت إلى الزهد عنصرا جديدا هو الحب الذى يتخذ منه الإنسان وسيلة إلى مطالعة جمال الله الأزلى. وكذلك ذهب أستاذنا المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق فى بحث له عن رابعة العدوية أيضا إلى أنها كانت أول من تغنى فى رياض الصوفية بنغمات الحب الإلهى شعرا ونثرا ولم يكن طريق المحبة معبدا قبلها.

وقد ذكر القشيرى فى رسالته أنها كان تقول فى مناجاتها:

إلهى اتحرق بالنار قلبا يحبك؟!

فهتف بها مرة هاتف:

ما كنا نفعل هذا فلا تظنى بنا ظن السوء.

ولم تكن رابعة تستهدف فى طاعتها لله غاية من الغايات، فلم تكن تطمع فى الجنة أو تخاف من عذاب النار، وإنما كانت تطيع الله حبا له، وهذه المرتبة الروحية تعتبر من أسمى مراتب التصوف عند من جاء بعدها وقد عبرت عنها رابعة بقولها:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه..

هذا لعمرى فى القياس بديع..

لو كان حبك صادقا لأطعته..

إن المحب لمن يحب مطيع..

ويروى أن سفيان الثورى قال لها يوماً:

لكل عقد (أى عقيدة أو أيمان) شريطة (شرط)، ولكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟

قالت: ما عبدته خوفا من ناره، ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء إن خاف عمل، بل عبدته حبا له وشوقا إليه.

* * *

كان منتهى مبتغاها.. وهى العابدة العاشقة لله تعالى أن يكون حبها لله وسيلتها إلى الجمال الأزلى.. حتى أنها كانت مع الناس بجسمها، أما روحها وعقلها فكانا يهيمان فى عالم الحب الإلهى.

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى..

وأبحت جسمى من أراد جلوسى..

فالجسم منى للجليس مؤانس . .

وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس . .

وهى التى ترنمت بهذه الأبيات الجميلة :

أحبك حبين حب الهوى

وحب لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى

فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له

فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى

ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا .

وما أكثر ما ترنمت به رابعة فى حب الله . . حتى أصبحت أشهر الشهيرات فى عالم الحب الإلهى . . وكانت مثالا وقدوة لمن جاء بعدها من المتصوفين . . فقد كانوا يحتذون حذوها فى جمال الحب الألهى وضرورة أن يتجه المرء إلى الله بكل كيانه ولا ينشغل بسواه . . عندئذ يحقق الله له ما يصبو إليه . . لأن الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام هو القائل نقلا عن ربه فى الحديث القدسى :

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» .

* * *

ومن أجمل الدراسات التى قراتها عن شهيدة العشق الالهى تلك الدراسة التى كتبتها الدكتورة سعاد على عبد الرازق (رابعة العدوية بين الغناء والبكاء).

إنها فى هذه الدراسة الممتعة تحدثنا عنها منذ طفولتها إلى انتقالها إلى أكرم جوار.. ومن خلال هذه الدراسة تقوم برحلة فى عالم هذه السيدة الجليلة.. فهى ترى أن الآراء تباينت حول زواج رابعة..

فهناك رأى يميل إلى القول بأن رابعة لم تتزوج كلية.. وأنها كانت ترفض كل من يتقدم لخطبتها، ذلك لأنها قد نذرت نفسها لله، فهو حبيبها الواحد، الذى لا يمكن أن تشرك به أحدا، ولا تدع أحد يشاركها فيه..

أما الرأى الآخر فهو: أن رابعة قد تزوجت وعاشت زمنا طويلاً مع زوجها إلى أن مات عنها وتركها أرملة.. وبعد ذلك رفضت الزواج مرة أخرى..

وبعد أن تحلل حجة كل فريق ترى هى أنها قد تزوجت من رباح القيسى.. لما كان بينهما من صلة.. وأن الذين قالوا أن رابعة لم تتزوج كالدكتور عبد الرحمن بدوى، قد ساق هذا الرأى تأكيدًا لرأيه فى عدم زواج رابعة ـ أمثلة من العزوبية بين الصوفية، والحث على عدم الزواج ـ فيضرب المثل (بالحسن البصرى) وكيف كان يرى أن الزواج لا يصلح بالنسبة للزاهد وذلك بقوله: إذا أراد الله بعبد خيرا فى الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد.

وكذلك ما روى عن (مالك بن دينار) أنه قال: لا يبلغ الرجل

منزلة الصديقين، حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوى إلى مزابل الكلاب . .

ولكن الباحثة ترى أن الزواج شرعه الله، وأقرته السنة النبوية الشريفة . . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام:

«لعن الله المتبتلين من الرجل الذى يقولون لا نتزوج، ولعن الله المتبتلات من النساء اللاتى يقلن لا نتزوج».

وفضل الزواج على العزوبية سنة مؤكدة الأحاديث فيه كثيرة، منها قوله عليه الصلاة والسلام:

«من رغب عن سنتى فليس منى، وإن من سنتى النكاح ومن أحبنى فليستن بسنتى».

فالزواج إذن رخصة وسنة، حقا إنه ليس فرضا ولكنه سنة مستحبة، وما كان ذلك ليغيب عن رابعة . . خاصة وأن كتب الطبقات قد ذكرت لنا ما يثبت زواج رابعة . . ومن المؤرخين الذين ذكروا أن رابعة قد تزوجت (المناوى فى طبقاته).

فهو القائل عنها:

وكانت كل ليلة تتطيب وتأتى زوجها وتقول له:

ألك حاجة؟

فإن كان له قضى وطره، فتطهرت ونصبت أقدامها إلى الصباح. وتذكر الباحثة آراء آخرين كابن الجوزى، واليافعى وغيرهما وخرجت من ذلك بقولها:

وهكذا نستطيع أن نقول أن رابعة لم تتبتل- كما قال البعض- بل تزوجت وعاشت فى كنف زوج فترة من الزمن لا يمكن تحديدها بدقة، وإن زوجها مات عنها، وأنها ردت كل من طلب يدها من بعده، ربما لأنها كانت قد تقدمت بها السن فلم يعد لها (من آلة الشهوة) كما قالت لعبد الواحد بن زيد. . والفرض الأرجح، أنها قررت الانقطاع لله عز وجل. . حبيبها الأوحد، الأزلى الأبدى، وأنه آن لها ألا تنشغل بغيره، وخاصة أنها كانت قد وصلت إلى قمة القداسة والطهارة الروحانية، وقد أفعم الحب قلبها وفاض، (وتخلل مسلك الروح منها) فليس فى الوجود كله ما يمكن أن يشغلها عن حبها طرفة عين.

والمؤلفة تميل إلى أنها تزوجت من رباح القيسى وأن رابعة هى زوجة رباح التى أشار إليها الكثير من المؤرخين وأنها بسبب هذه الزيجة قد نسبت إلى القيسيين فاشتهرت «برابعة العدوية القيسية». .

ويرى الدكتور أبو الوفا التقتازانى أستاذ الفلسفة ورئيس الطرق الصوفية الراحل فى كتابه (مدخل إلى التصوف الإسلامى) أنه إلى رابعة العدوية يرجع فى الحقيقة الفضل فى إشاعة لفظ الحب عند من جاء بعدها من الصوفية، بعد أن لم يكن طريق الكلام فى الحب قبلها ممهدا. .

ومن رأيه أيضا أنها لم تكتف بإشاعة لفظ الحب بل هى أول من تعرض بالحليل لمعناه. وبيان ما هو قائم منه على معنى الإخلاص، وما هو قائم منه على طلب الأعواض من الله.

ويرى أيضا أن رابعة العدوية فى الحقيقة نقطة تحول هامة فى الزهد الإسلامى الممهد لظهور الصوفية والتصوف، ومن هنا جاءت شهرتها ووصفها لهذا ابن خلكان قائلاً:

كانت (رابعة) من أعيان عصرها وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة.

ولا أدل على مكانتها أيضا مما نقله ابن هياد المرتدى فى شرحه للحكم العطائية من أنها كانت (إحدى المحبين) ومن أن (سفيان الثورى) مع ما عرف عنه من الزهد والعلم، كان يجلس بين يديها ويقول لها:

علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة.

وكانت تقول له:

نعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا..! وكان يعترف لها ويسلم قولها.

ويحدثنا عن خصائص الزهد فى القرنين الأول والثانى بعد أن يحدثنا عن مدارسه فى المدينة والبصرة والكوفة ومصر وخراسان بأنه يتميز بالخصائص التالية أولا: أنه يقوم على أساس فكرة مجانبة الدنيا من أجل الظفر بثواب الآخرة واتقاء عذاب النار، متأثرا فى ذلك بتعاليم القرآن والسنة، وبالظروف السياسية والاجتماعية السائدة فى المجتمع الإسلامى أنذاك.

ثانيا: أنه زهد ذو طابع عمل، ولم يعن أصحابه بوضع القواعد النظرية له، ومن وسائله العملية العيش فى هدوء وبساطة تامة،

والتقليل من المأكل والمشرب والإكثار من العبادات والنوافل والذكر، مع المبالغة فى الشعور بالخطيئة والخضوع المطلق لمشيئة الله، والتوكل عليه وهو بهذا يهدف إلى غاية أخلاقية.

ثالثا: أنه كان يتخذ دافعا له الخوف من الله، وهو خوف يبعث على العمل الدينى الجاد، على أنه ظهر له دافع آخر فى أواخر القرن الثانى عند رابعة، وهو الحب لله المنزه عن الخوف من عقاب الله والطمع فى ثوابه فى أن معا، وهو يعبر عن إنكار الذات وعن التجرد فى علاقة الإنسان بالله.

رابعاً: أن زهد بعض المتأخرين من الزهاد خصوصا فى خراسان وعند (رابعة) يمكن لما تميز به من تعمق فى التحليل أن يعتبر مرحلة تمهيديه للتصوف وأصحابه، وإن كانوا يقتربون من التصوف ولا يعدون صوفية بالمعنى الدقيق للكلمة.

وإنما يمكن اعتبارهم روادا أوئل لمن يجئ بعدهم من صوفية القرنين الثالث والرابع.

* * *

ونعود الى رابعة العدوية . . ورحلتها مع الحب الإلهى.

لقد عاشت رابعة للحب وبالحب الإلهى. .

وكانت لا تخشى الموت. . لأن الموت هو الوسيلة التى ستجعلها تلتقى بالحبيب. .

وتقول الدكتورة سعاد عبد الرازق فى دراستها الممتازة عن رابعة

وأيامها الأخيرة . . فقد عاشت حتى الثمانين من عمرها أنها كانت تضع أكفانها أمام ناظريها فوق مشجب من قصب فارسى، حتى لا يغيب عن بالها أبدا ذكر الموت نزولا على قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

«أكثروا من ذكر هازم اللذات».

ذكر عن عبدة بنت أبى شوال . . وكانت تخدم رابعة قالت:

«كانت رابعة تصلى الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها وهى فزعة:

يا نفسى لم تنامين؟

وإلى كم تنامين؟

يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة النشور!

وقالت عبدة:

فكان هذا دأبها إلى أن ماتت . . فلما حضرتها الوفاة دعتنى فقالت:

يا عبدة لا تؤذنى بموتى أحدا، ، ولفينى فى جبتى هذه (جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون).

قالت:

فكفناها فى تلك الجبة وخمار صوف كانت تلبسه.

ولقد ماتت رابعة على زهدها حتى عند وفاتها لم تشأ أن تشغل

أحد ولا تزعج فردا بشأنها ولكن الله جل جلاله أكرمها بأن أرسل إليها طائفة من العباد والصالحين والصالحات التفوا حولها. . ثم أكرمها الكرم الأعظم بأن أرسل إليها من رحمته رسلا بالبشرى، فقد ذكر أنه لما حضرتها الوفاة قالت لأصحابها:

انهضوا واخرجوا، ودعوا الطريق مفتوحة لرسل الله تعالى.

فنهضوا جميعاً وخرجوا، ولما أوصدوا الباب سمعوا صوت رابعة وهى تنطق بالشهادة، فأجابها صوت مسموع، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [سورة الفجر٢٧ : ٣٠].

وهكذا انتقلت نفس رابعة العدوية المطمئنة الراضية المرضية المحبة إلى بارئها، وتسعد فى نعيم ليس يفنى وسعادة مالها من زوال، هانئة بقرب الحبيب فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

وقالت عبدة بنت أبى شوال:

رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها فى منامى، عليها حلة من استبرق خضراء، وخمار من سندس أخضر لم أر شيئا أحسن منه فقلت:

يا رابعة ما فعلت بالجبة التى كفّناك فيها والخمار الصوف؟ قالت:

- إنه والله نُزع عنى وأبدلت به هذا الذى ترينه على، وطويت أكفانى. . وختم عليها، ورفعت فى عليين لتكمل لى بها ثوابها يوم القيامة.

قالت عبدة. . فقلت لها:

لهذا كنت تعملين أيام الدنيا؟

فقالت:

وما هذا عندما رأيت من كرامة الله لأوليائه!

فقلت:

فما فعلت عبدة بنت أبى كلاب ـ وكانت من كبار العابدات فى البصرة.

فقالت رابعة:

هيهات هيهات.. سبقتنا والله إلى الدرجات العلى.

قالت قلت: وبم؟ وقد كنت عند الناس أكثر منها؟

قالت: لم تكن تبالي على أى حال أصبحت من الدنيا وأمست.

فقلت: ما فعل بشر بن منصور؟

فقالت: بخ بخ!.. أعطى.. أعطى والله فوق ما كان يأمل.

فقلت: فمرينى بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل؟

فقالت: عليك بكثرة ذكره، فيوشك أن تغبطى بذلك فى قبرك.. والله أعلم.

وقال بشار بن غالب النجرانى: رأيت رابعة العدوية فى منامى وكنت كثير الدعاء لها، فقالت لى: يا بشار هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير.

قلت: وكيف كذلك؟

قالت: هكذا دعاء المؤمنين الأحياء، إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم، جعل ذلك الدعاء على أطباق النور المخمرة بمناديل الحرير، ثم أتى به الميت فقيل له: هذه هدية فلان إليك.

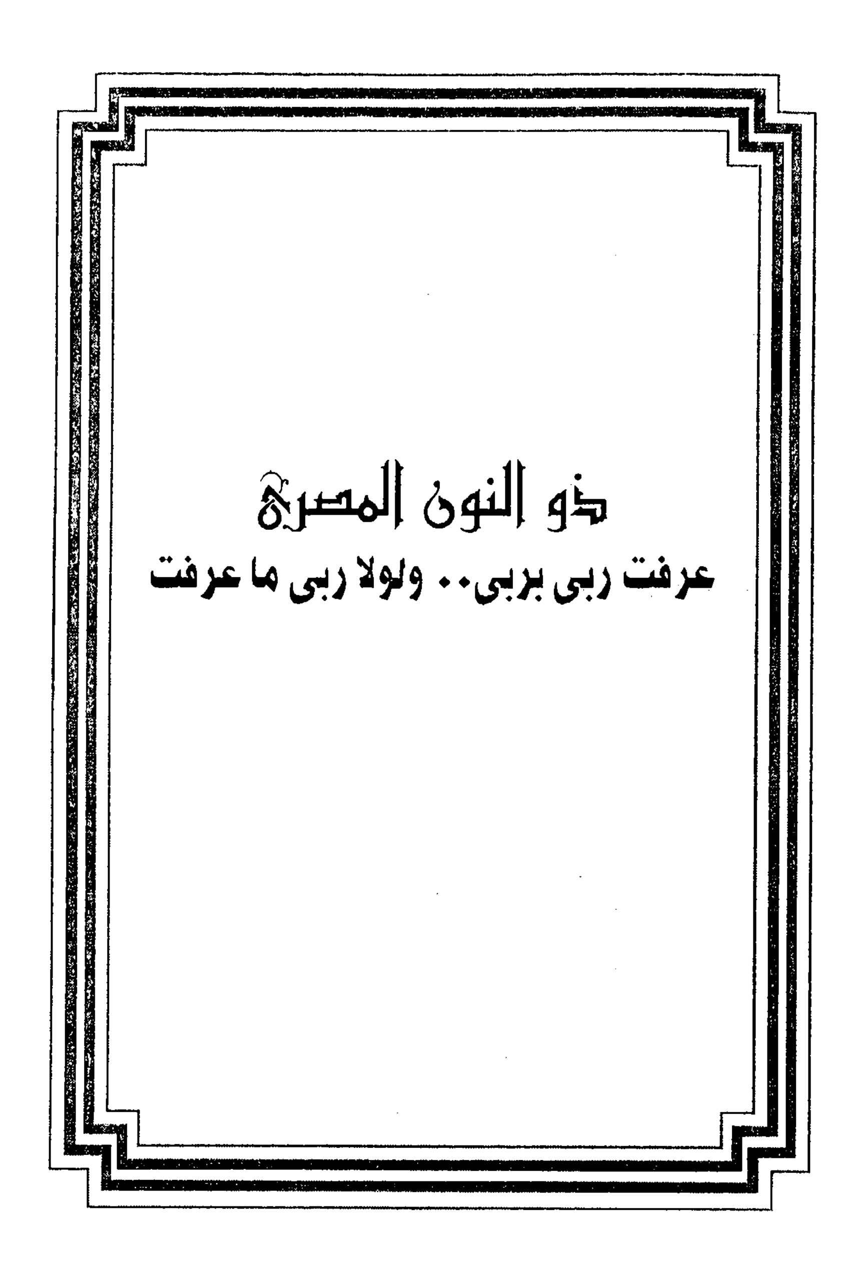
وستظل سيرة رابعة العدوية أعذب سيمفونية فى سمع الزمان.. إنها قصة إنسانة عاشت حياتها، ولكن روحها كانت تحلق وتهفو إلى الحب الإلهى، فرفعها الله إليه بهذا الحب درجات.. جعلتها تسكر بجلال حبه.. وتهفو إلى ما عنده.. فارتفعت بروحها أو رفعتها روحها إلى تلك القمم السامقة من قمم الحب الإلهى.. وظلت سيرتها تتناقلها الأجيال.. سيرة امرأة تطهرت، وارتفعت إلى آفاق الروح.. فأصبحت أجمل سيمفرنية فى سمع الزمان.. وذاكرة التاريخ.

و.. ما أكثر ما قيل عنها من أساطير؟

و.. ما أكثر ما رووا عنها من كرامات.

ولكن سيظل حبها لله.. جل علاه.. هل الذكر الباقى لإنسانة عاشت لله.. وبالله.. وبلغها الله ما تريد وأحبها الناس لحب الله لها.. رضى الله عنها فهى أول عازفة عزفت لحن الحب الإلهى!..

* * *



ذو النون المصري

عرفت ربي بربي.. ولولا ربي ما عرفت

لقد عرفت مصر التدين منذ عصورها القديمة فعلى ثراها نشأ نبى الله إدريس عليه السلام.. الذى علم الناس القراءة والكتابة والزراعة أيضا .. وقد رفعه الله مكان عليا، وعلى أرضها أيضا نادى اخناتون بالتوحيد.. وعبادة الله الواحد الأحد.. خالق كل شئ، والمهيمن على كل شئ.. وإلى أرضها جاء إبراهيم الخليل عليه السلام، كما نشأ على أرضها موسى عليه السلام.

فأرض مصر ومناخها وتراثها تهيئ للنفوس المطمئنة أن تتوجه بكل كيانها إلى عالم الصوفية.. عالم الصفاء والطهر والنقاء والتوجه إلى الله لتلقى فيوضاته، على أرض مصر هذه نشأ أبو الفيض ذو النون المصرى، ويقول عنه الإمام القشيرى: إن اسمه ثوبان بن إبراهيم، وقيل الفيض بن إبراهيم، وأبوه كان نوبيا توفى سنة(٢٤٥هـ).

وقيل أنه قد وشى به عند المتوكل، ولكن عندما رآه المتوكل وسمع منه، عرف له مكانته فأحسن وفادته، ورده إلى مصر مكرما.

وقالوا عنه أنه كان رجلاً نحيفا تعلوه حمرة ليس بأبيض اللحية، ونورد هنا بعض ما نقله عنه الإمام القشيرى من أفعاله وأقواله.

يقول ذو النون المصرى:

مدار الكلام على أربع: حب الجليل، ونبض القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل.

ومن أقواله أيضا:

علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله ﷺ فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته.

وسئل عن السفلة فقال:

من لا يعرف الطريق إلى الله ولا يتعرفه.

ويقول عنه أبو بكر محمد بن عبد الله بن شاذان:

سمعت يوسف بن الحسين يقول حضرت مجلس ذى النون يوما، وجاءه سالم المغربى فقال له:

يا أبا الفضل ما كان سبب توبتك؟

قال: عجب لا تطيقه.

قال: بمعبودك إلا أخبرتنى؟

فقال ذو النون:

أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى، ففتحت عينى فإذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض فانشقت الأرض فخرج منها سكرجتان احداهما ذهب والأخرى فضة، وفى احداهما سمسم وفى الأخرى ماء، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا.. فقلت حسبى قد تبت وأنبت، ولزمت الباب إلى أن قبلنى الله عز وجل.

ومن أقواله:

لا تسكن الحكمة معدة ملئت طعاما.

وسئل عن التوبة فقال :

توبة العوام تكون من الذنوب ، وتوبة الخاص تكون من الغفلة .

وهذا النهج الذى سار عليه ذو النون المصرى هو نفس النهج الذى سار عليه صوفية الإسلام الذين تمسكوا بالكتاب والسنة . . وعدم الخروج عن الإطار الإسلامى الصحيح . . فهم يرون إن عزة الإنسان تتم بكمال العبودية لله ومن هنا نرى أحدهم وهو إبراهيم ابن أدهم ، يصف درجة الصالحين التى يتوق إليها أهل الله :

أعلم إنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات :

أولاها : أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة .

والثانية : تغلق باب العز وتفتح باب الذل .

والثالثة : تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد .

والرابعة : تغلق باب النوم وتفتح باب السهر .

والخامسة : تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر .

والسادسة : تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت .

ورغم أن ذا النون المصرى حفظ القرآن الكريم ، ودرس علوم الشريعة ، وتفقه فى الدين ، وألم بالعلوم التى سادت عصره ، إلا أنه اشتهر بالصوفية .

وقد بلغ من منزلة الرجل فى قلوب معاصريه أن الصوفية فى عصره كانوا يرجعون إليه ، عندما يذهب إلى بيت الله الحرام ، ولم

يكن لأحد منهم أن يجرؤ إلى الحديث فى شأن من شئون الدين فى حضرته . . !

والذى يدرس حياة الرجل وتصوفه ومواقفه مع الناس، يرى إنسانا زاهدا فى الدنيا . . آملا فيما عند الله . . لايهم ما فى الدنيا من زخارف ومتع . . إنما كل همه أن يتعبد حتى تفيض على قلبه من الإشراقات ماتتضاءل أمامه كل نعمة من نعيم الدنيا، وكل متع من متع الحياة .

فالحياة ليست فى امتلاك المال . . ولكن فى امتلاكك أنت لقيادة نفسك، وتطويعها لحب الله وعبادته .

ونورد نصين . . عبارة عن ابتهالات كان يبتهل بها الرجل إلى خالقه . . يتضح فيها عمق الرؤية وشفافيته أو على حد تعبير الدكتور محمد كمال جعفر الذى أورد هذين النصين فى كتاب (رحلة بين العقل والوجدان) أن الصوفى إلى الناس قد لا يكشف عن مدى عمقه أو مقامه من الحياة الروحية، لأنه قد يراعى مستوى الناس، وبخاصة إذا كانوا كثرة .

أما حديثه إلى خاصته أو بالأحرى حديثه إلى ربه فيصور خلاصة رؤاه، ولب شعوره، وغاية بصره وعلمه فى هذا الميدان الروحى الرحيب، وهذا الميدان الذى يزداد سعة بسعة فضل الله (والله واسع عليم) .

ويتجلى ذلك فيما نورده من بعض هذه الابتهالات التى يجب أن

يتزود منها كل مسلم، وأن يقدرها كل أديب، ومن هذه الابتهالات قوله:

«إلهى وسيلتى إليك نعمك علىَّ، وشفيعى إليك إحسانك إلىَّ، إلهى أدعوك فى الملأ كما تُدعى الأرباب، وأدعوك فى الخلا كما تُدعى الأحباب.

أقول فى الملأ:

يا إلهى . .

وأقول فى الخلا:

يا حبيبى . .

أرغب إليك، وأشهد لك بالربوبية، مقرا بأنك ربى، وإليك مردى، ابتدأتنى برحمتك من قبل أن أكون شيئا مذكورا، وخلقتنى من تراب ثم اسكنتنى الأصلاب، ونقلتنى إلى الأرحام، ثم أنشأت خلقى من عن يمينى، ثم اسكنتنى فى ظلمات ثلاث بين دم ولحم ملتاث، وكونتنى فى غير صورة الإناث، ثم نشرتنى إلى الدنيا تاما سويا، وحفظتنى فى المهد طفلا صغيرا صبيا، ورزقتنى من الغذاء لبنا سريا، وكفلتنى حجور الأمهات، وأسكنت قلوبهم رقة وشفقة لى وشفقة على، وربيتنى بأحسن تربية، ودبرتنى بأحسن تدبير، وكلأتنى من طوارق الجن، وسلمتنى من شياطين الإنس، وصنتنى من زيادة فى بدنى تشيننى، ومن نقص يعيبنى، فتباركت ربى وتعاليت يا رحيم . .

فلما استهللت بالكلام أتممت على سوابغ الأنعام، وأنبتني زائدا في كل عام، تعاليت يا ذا الجلال والإكرام، حتى إذا ملكتني شأني، وشددت أركاني أكملت لي عقلي، وأزلت حجاب الغفلة عن قلبي، والهمتني النظر في عجيب صنائعك، وبدائع عجائبك، ورفعت وأوضحت لي حجتك، ودللتني على نفسك، وعرفتني ما جاء به رسلك، ورزقتني من أنواع المعاش، وصنوف الرياش بمنك العظيم، وإحسانك القديم، وجعلتني سويا، ثم لم ترض لي بنعمة واحدة دون أن أتممت على جميع النعم، وصرفت عني كل بلوى، وأعلمتني الفجور لأجتنبه، والتقوى لاقترفها، إذا دعوتك أجبتني، وإن سألتك أعطيتني، وإن حمدتك شكرتني، وإن شكرتك زدتني.

إلهي: فأي نعم أحصي عددا؟

وأي عطائك أقوم بشكره؟

أما أسبغت عليَّ من النعماء أو صرفت عني الضراء؟

إلهي:

أشهد لك بما شهد لك باطني وظاهري وأركاني.

إلهي:

أني لا أطيق إحصاء نعمك، فكيف أطيق شكرك عليها.

وقد قلت وقولك الحق:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

أم كيف يستغرق شكرك نعمك؟

وشكرك من أعظم النعم عندى، وأنت المنعم به عليَّ كما قلت سيدى:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

إلهى وسيدى بلغت رسلك بما أنزلت إليهم من وحيك، غير أنى أقول بجهدى ومنتهى علمى، ومجهودى وسعى، ومبلغ طاقتى:

الحمد لله على جميع إحسانه حمدا يعدل حمد الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين».

ويعلق على هذا النص الدكتور محمد كمال جعفر: إن الاستهلال الذى بدأ به ذو النون المصرى قد يند عن المتعجل أو الذى لا ينفذ إلى أعماق العبارة.. فهو يقول مخاطبا الله جل جلاله:

إلهى: «وسيلتى إليك نعمك على، وشفيعى إليك أحسانك إلى» فالوسيلة التى يتخذها ذو النون إلى الله فى الحقيقة من نعم الله سبحانه، وإذن فما أتى العبد بشئ من عنده فليس له أن يدخل بطاعة أو يتعزز بمكرمة أو نبيل شعور. إذ أن ذلك كله ثمرة من ثمار نعم الخالق التى تشمل البدن والروح.

وهذا من الفقه الدقيق لحقيقة الإنسان.

ويثنى ذو النون بذكر الشفيع الذى يشفع له فى تقصيره عن بلوغ الأداء الذى يتطلبه مقام الرب، وليس هذا الشفيع أيضا إلا إحسان الله وإنعامه.

(فله الحمد فى الأولى والآخرة).

وهنا نرى الفرق بين النظرة الفقهية أو الدنيوية القريبة التى ينظرها الفقيه أو المتدين العادى الذى إذا سألته عن وسيلة القرب إلى الله قال على الفور إنها (العمل الصالح) مبلغ علمه. بل هو ـ للإنصاف ـ واجبه ليحمل الناس على أداء الأعمال، نرى الفرق بين النظرة السابقة وبين نظرة ذو النون العميقة التى ترجع الأمر كله إلى فضل الله، وهذا هو قمة الأدب الإسلامى، وليس فى هذه النظرة ما فى نظرة هؤلاء الذين يرجعون الأمر كله إلى الله لغاية خبيئة، وهى التعلل بقدر الله لإتيان المعاصى، وارتكاب الموبقات، لأن المقام الذى يتحدث فيه ذو النون مقام الولاء والمحبة والأخلاص والحمد، وهذا لا يكون إلا فى الطاعات، وأوجه الكمالات، ويدل على ذلك دلالة واضحة قول ذى النون بعد ذلك مباشرة:

«إلهى: أدعوك فى الملأ كما تدعى الأرباب، وأدعوك فى الخلا كما تدعى الأحباب. أقول فى الخلا يا إلهى، وأقول فى الملأ يا حبيبى» وهذا ينبئ بالحكمة التى يتمتع بها المؤمن الصادق فلا يكون فتنة لإخوانه، أو سببا فى أن يشق عليهم فيتحدث أمامهم بما لا يفهمون أو بما قد يسيئون فهمه.

فمن يدرى؟

لعله لو قال على الملأ مخاطبا الله: يا حبيبى. لهاجمه الناس وظنوا به الظنون، ما أكثر ألسنة السوء التى ركبت على مخازن من

سوء الظن بالناس مع مكر فى التلاعب بالألفاظ وتدليس وسبك الاتهامات، وغفلة عن شئون النفس، واشتغال بأحوال الآخرين، وهذا من أمارات الإفلاس الروحى.

لعل منهم من يزعم مثلا أن ذا النون يستخف بربه فيقول له يا حبيبى، كأنه جعله إنسانا، فإن الحب معناه اللوعة والضنى والسهر والتلذذ بالوصال، وهذا يؤدى إلى تصور علاقة حب بين الله وعباده، إلى آخر هذ الاتهامات التى أذاعها للأسف بعض العناصر التى كانت تكيد للإسلام عن طريق الاندساس فى بعض الفرق الإسلامية كالجهمية وغيرهم.

* * *

وخلاصة القول أن ذا النون فى هذا الدعاء إلى ربه يتضح لنا مدى حبه لربه، وتصويره أنعام الله وأفضاله عليه منذ كان فى الغيب، وأعزه بالنفحة الروحية التى جعلته إنسانا.

ولذى النون المصرى عبارة يقول فيها:

«لقد عرفت ربى بربى، ولولا ربى ما عرفت ربى».

وهو يعنى بذلك أن الله سبحانه وتعالى هو الذى ألهمه معرفته.. فليست معرفته لربه عن اجتهاد منه، ولكن رحمة الله التى وسعت كل شئ هى التى ألهمته إلى معرفة الله، ومادمت قد عرفت الله، فقد فاضت عليك رحماته.

ولعل هذا الكلمة البليغة فيها الرد على الذين يحاولون أن يعرفوا

كل شئ بالعقل، ومع ما تسمعه اليوم من ضرورة الأخذ بالعقل، فهو الوسيلة إلى التقدم، وهو الوسيلة إلى المعرفة والإدراك، وبالتالى فهو الوسيلة إلى معرفة حقائق الأمور.

ومع الاعتزاز بالعقل..

ومع اعترافنا بدوره فى صنع الحياة..

ومع إدراكنا أن القرآن الكريم يحث على النظر فى الكون وما فيه من مظاهر القدرة الإلهية، والأخذ بالأسباب لمعرفة هذا الكون وأسراره، إلا أن العقل يقف عاجزا متخاذلا أمام أسرار الغيب.

نعم إن العقل يمكن من خلال طبيعته أن يكون العلم الذى يقرأ ويستوعب ويربط الأسباب بالمسببات، أن يدرس المادة وطبيعتها.. ويصل إلى النتائج التى تؤدى إلى تقدم الحضارة وازدهارها.. فهذا هو دوره فى مجال المعرفة الحسية.

ولكن من الصعب أن نعرف الأمور الغيبية عن طريق العقل ولكن يمكن معرفتها عن طريق الوحى الذى يخبرنا بما وراء المادة.. ومن أجل هذا فقد أخفقت الفلسفة وعجزت عن تفسير ما وراء الطبيعة.

فالعقل له مجالاته وميادينه.

كما أن للقلب مجالاته أيضا وميادينه.

فإذا كنا ندرك أن الله موجود ـ بالعقل ـ لأن لكل صنعة خالق

لها، والله خالق هذا الكون، فإننا ندرك بالقلب بعضا من المعرفة التى يبثها الله سبحانه وتعالى فى قلوب عباده الصالحين.

أو على حد تعبير الدكتور عبد الحليم محمود وهو يحدثنا فى كتابه (الفلسفة والحقيقة) ويستعرض الجو الفلسفى فى الإسلام، بأن الخصم الذى كانت لكتاباته شهرة لا حد لها وتأثير عظيم هو حجة الإسلام الإمام الغزالى، صاحب كتاب (تهافت الفلاسفة) وكلمة (تهافت) تعنى السقوط والانهيار.

ويقول الدكتور عبد الحليم: ولكننا نتساءل الآن : لماذا كان المحدثون وكثير غيرهم خصوما للفلاسفة، وما حكمتهم فى ذلك؟

ويجيب:

إن موقفهم من الوضوح بمكان، وذلك أن موضوع الفلسفة هو نفسه موضوع الدين.

إن الدين: إلهيات وأخلاق تستند إلى الوحى، والوحى معصوم.

والفلسفة: إلهيات وأخلاق تستند إلى العقل، والعقل يخطئ ويصيب، وهو حينما يخطئ لا يعلم يقينا أنه أخطأ، وحين يصيب لا يعلم يقينا أنه أصاب!

ويقولون: أو لسان حالهم يقول :

لقد ضمن الله لنا العصمة فى الوحى، ولم يضمن لنا العصمة فى الآراء العقلية.

وحينما أخذ المتفلسفون يترجمون كتب اليونان وغيرهم قال معارضو الفلسفة:

إن كان ما عند اليونان فى العقائد حقا فعندنا ما هو أحق منه وهو عقائد الإسلام، لأنها بالأسلوب الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ونحن إذن فى غنى عن عقائدهم.

وإذا كان ما عندهم باطلا فنحن فى غنى عن هذا الباطل! وكذلك كان موقفهم من الأخلاق بمعناها العام.

إذا كانت أخلاق اليونان فاضله فعندنا ما هو أفضل منها، ولم تتم مكارم الأخلاق إلا فى العهد الإسلامى.

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وإن كانت أخلاق اليونان فاسدة فنحن نعوذ بالله من كل فساد. وعارضوا الترجمة فى الجانب الإلهى، وعارضوها فى الجانب الأخلاقى، ولكنهم لم يعارضوها فى جانب العلوم المادية وإنما شجعوا عليها.. مثل الطبيعة والكيمياء والفلك، وعارضوا التفلسف بكل ما أوتوا من قوة.

ولكن التيار الفلسفى استمر فى المجتمع الإسلامى، وإذا كان قد تهافت فى المشرق بتأثير حجة الإسلام الإمام الغزالى، فإنه ازدهر فى المغرب على لسان ابن باجة وابن طفيل وابن رشد.

* * *

مهما يكن من شئ فقد كانت عبارة الصوفى الكبير (ذو النون المصرى):

«عرفت ربى بربى، ولولا ربى ما عرفت ربى»

عبارة بالغة الأشراق..

بالغة العمق..

بالغة الفهم لمنهج الإسلام.

بل إن هذا العبارة تكاد تكون هى العبارة التى أجمع عليها متصوفة الإسلام، بأن المعرفة نور يقذفه الله فى قلب عبده المؤمن.

ومن هنا كان دعاء(مالك بن دينار):

«اللهم أنت أصلحت الصالحين، فاجعلنا صالحين».

فالأمر كله إذن بيد الله جل علاه.

ونرى ذا النون المصرى يقول:

«الأنس بالله من صفاء القلب مع الله، والتفرد بالله والانقطاع عن كل شئ سوى الله».

إن الرحلة فى عالم ذى النون المصرى هى إبحار فى عالم من الشفافية والطهر والنقاء، والتجاء إلى الله عز وجل فى العسر واليسر، وفى الشدة والرخاء.. وإن معرفة الله، والتقرب إليه بقصد القرب منه هى أسمى ما يطمح إليه قلب الصوفى العاشق لربه، الراجى منه سعادة الدارين.

ومن هنا تراه فى احدى ابتهالاته المليئة بجمال العبق الروحى قوله :

«إن لله عبادا ملأ قلوبهم من صفاء محض محبته، وهيج أرواحهم بالشوق إلى رؤيته، فسبحان من شوق إليه أنفسهم، وأدنى منه هممهم، وصفت له صدورهم، سبحان موفقهم ومؤنس وحشتهم وطبيب أسقامهم.

إلهى :

لك تواضعت أبدانهم منك إلى الزيادة . . انبسطت أيديهم ما طيبت به عيشتهم، وأدمت به نعيمهم، فأذقتهم من حلاوة الفهم عنك ففتحت لهم أبواب سماواتك، وأتحت لهم الجواز فى ملكوتك، بك أنسيت محبة المحبين، وعليك معول شوق المشتاقين، وإليك حنت قلوب العارفين، وبك أنست قلوب الصادقين، وعليك علقت رهبة الخائفين، وبك استجارت أفئدة المقصرين، قد بسطت الراحة من فتورهم، وقل طمع الغفلة فيهم، لا يسكنون إلى محادثة الفكرة، لا يعنيهم ولا يفترون عن التعب والسهر . . يناجونه بألسنتهم، ويتضرعون إليه بمسكنتهم . . يسألونه العفو عن زلاتهم، والصفح عما وقع الخطأ به فى أعمالهم . . منهم الذين ذابت قلوبهم بفكر الأحزان، وخدموه خدمة الأبرار الذين تدفقت قلوبهم ببره، وعاملوه بخالص من سره حتى خفيت أعمالهم على الحفظة فوقع بهم ما أملوه من عقوق، ووصلوا بها إلى ما أرادوا من محبته، والله إنهم الزهاد والسادة من العباد الذين حملوا أثقال الزمان، فلم يألموا

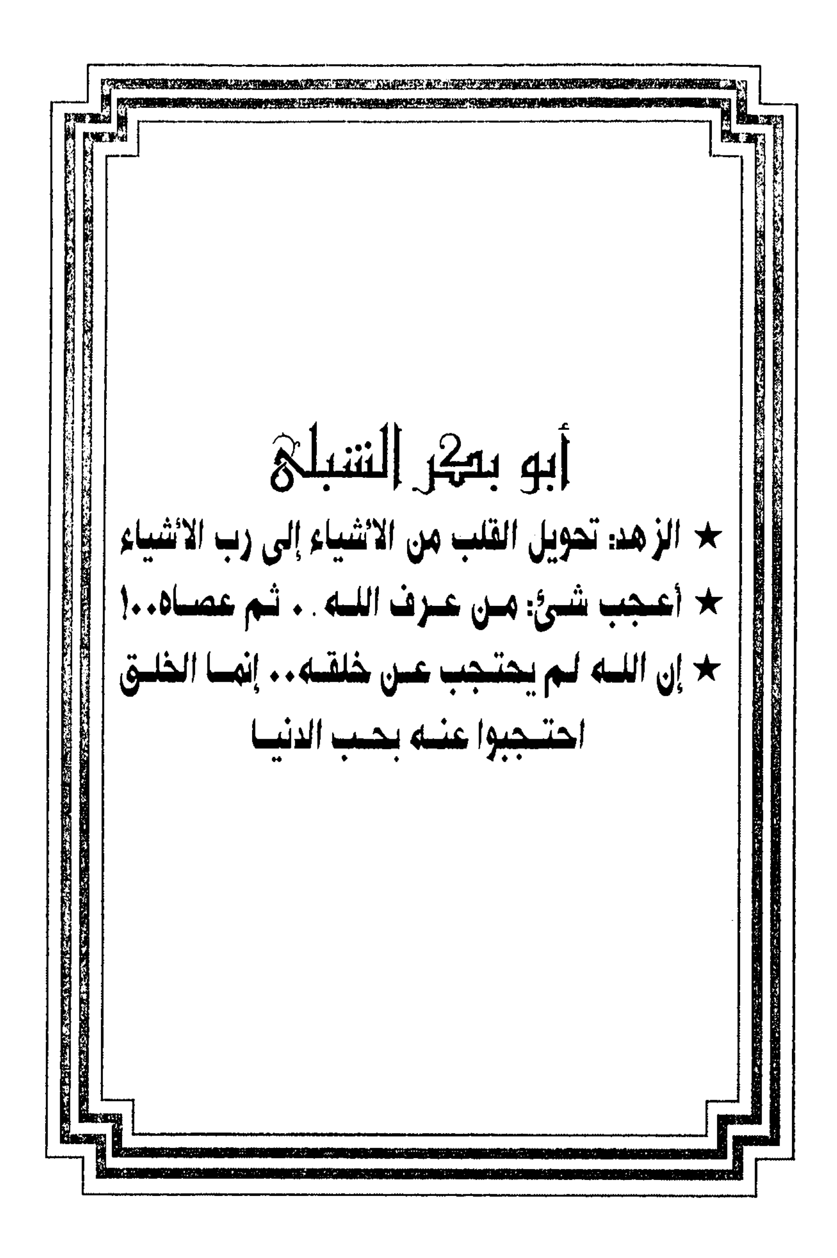
بحملها، ووقفوا فى مواطن الامتحان فلم تزل أقدامهم عن مواضعها، حتى مال بهم الدهر، وهانت عليهم المصائب، وذهبوا بالصدق والإخلاص عن الدنيا».

إلى آخر هذا الدعاء الرائع الذى ينم عن نفس مطمئنة بذكر الله وحبه وإيثار ما عنده. فعاشوا حياتهم كضيوف على دنيانا وتركوا من بعدهم هذا التراث الجميل ، الموشى بجمال الروح وصدق الإخلاص وجمال الاعتماد على الله.

إن الحديث عن هذا الصوفى المصرى، هو حديث عن ألق الروح، وجمال الوجدان، وطهارة الباطن وعفة الظاهر.

إنه صورة للمؤمن المتمسك بدينه لا يحيد فى توجهه إلى الله، والعبادة له، والإخلاص لدينه عن الكتاب والسنة.. فعاش فى ضمير التاريخ وبقى تراثه يرمز لكل ما هو جدير بالاحترام والتقدير.





أبو بكر الشبلي

★ الزهد: تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء

★ أعجب شئ: من عرف الله .. ثم عصاه..!

★ إن الله لم يحتجب عن خلقه.. إنما الخلق احتجبوا عنه بحب الدنيا

كان أبو بكر الشبلى من أزهد رجال عصره. وهذا الزهد ليس نابعاً من أنه نشا فى بيئة فقيرة، وبالتالى تكيف على أوضاعها، ثم اتجه إلى التصوف فأصبح الزهد طريقا إلى ورعه وتقواه، ولكنه نشأ فى أسرة ثرية، فوالده كان حاجب الحجاب للموفق.. أى أنه نشا فى ظل الخلافة كما أن خاله كان أمير الأمراء بالاسكندرية.

وقد نشأ فى العراق بـ(سر من رأى) وإن كان خرسانى الأصل.. والبعض يقول أنه من أصل مصرى، مهما يكن من شئ.. فالرجل الذى تثقف بثقافة عصره، بجانب تعمقه فى دراسة الشرع.. فقد حفظ القرآن والكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، وقد تولى ولاية (دوماند) فى الرى، وبعض الرواة يرى أنه كان حاجبا للموفق.

والذين قالوا عنه أنه كان مصريا.. استندوا إلى أنه كان مالكى المذهب، ولم يكن هذا المذهب منتشرا فى العراق، لما كان بين الإمام مالك والدولة العباسية.. ولأن الدولة الأموية فى الأندلس كانت تعتنق مذهب الإمام مالك.

مهما يكن من أمر.. ومهما كان الاختلاف حول أصله.. فإنه كان إنسانا مرموقا فى وظيفته.. وأنه قد تصوف وأصبح من أعلام الصوفية.. (لتقيده وورعه وزهده) وحبه الشديد لله.. حتى قال عنه الإمام الجنيد «لكل قوم تاج، وتاج هؤلاء القوم (يقصد الصوفية) الشبلى».

وأبو بكر الشبلى هو الذى تحدث عن القدوة بالصحابة، على أساس الحديث الشريف:

«أصحابى كالنجوم بايهم اهتديتم اقتديتم».

فقال:

من خرج عن ماله كله لله فإمامه أبو بكر.

ومن خرج عن بعضه وأمسك بعضه فإمامه عمر.

ومن أخذ وأعطى وجمع لله فإمامه عثمان.

ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علىٌّ.

وكل علم لا يؤدى إلى ترك الدنيا فليس بعلم.

ومن أقواله الشهيرة:

إن الله تعالى موجود عند الناظرين فى صنعه، مفقود عند الناظرين فى ذاته.

* * *

ولكن لماذا اتجه الرجل إلى الزهد والتصوف وهو الذى نشأ وتربى فى جو من الثراء والجاه؟

ما هى الأسباب التى جعلته من أزهد الناس، فأعرض عن الدنيا وهى التى كانت مقبلة عليه؟

وأدار ظهره لكل مظاهر الترف وهو الذى كان يمكنه أن يعيش حياة الترف والثراء، ويتمتع بالجاه والسلطة بحكم كونه من طبقة الحكام، وقريبا من بلاط الخلافة؟

لقد عرف أحد شيوخ الطريقة (خير النساج).. وتأثر بمواعظه ومن هنا فقد آثر أن يسير على نفس نهج شيخه.

كيف؟

يقول الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق فى كتابه (أبو بكر الشبلى):

لقد أثر خير النساج تأثيرا قويا على الشبلى، فزلزل نفسه من جذورها ودفعها دفعا نحو الطريق إلى الله، فنزع حب الرياسة من قلبه، وتهافت حب الملذات من شعوره، واستشرفت نفسه إلى سعادة من نوع آخر. لقد أخذ يتطلع إلى ما قاله إبراهيم بن أدهم:

نحن فى سعادة لو علمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف.

والشبه بين حياة الشبلى وحياة إبراهيم بن أدهم قوى، فقد كان كل منهما صاحب مركز مرموق، كان ثريا واسع الثراء، كان ذا جاه عريض، انظر ما يكون شبابًا وفتوة وفى لحظة من اللحظات زاف الباطل، كل الباطل، من بين عينيه، واتجه فى لحظة إلى الباقيات الصالحات- وأصبح ومازال- مصدرا للهداية، وإشعاعا من النور ينير منازل السائرين.

وإذا كانت توبة إبراهيم بن أدهم لم تسر على النسق العادى المألوف، وإنما كانت آية من الآيات الخارقة للعادة، فإن توبة الشبلى - وهى آية من آيات الله- سارت على النسق المألوف.

لقد تاب على يد خير النساج، وكانت توبته صادقة، وإذا صدقت التوبة أثمرت مباشرة الاستقامة، دون زمن فاصل أو حدود معرقلة.

واستقام الشبلى فى قلبه وروحه وشعوره وجوارحه، وكان يتأنى ـ وقد وصل ـ آن يجرى وراء المظاهر.. إنه يريد أن يتفرغ للدعوة إلى الله فى نفسه حتى تتزكى، وفى المجتمع حتى يستقيم ومن أجل هذه العناية النبيلة قام بأمرين:

١ - أما الأمر الأول فهو أنه رجع إلى البلدة التى كان واليا عليها وقال لأهلها:

أنا كنت صاحب الموفق، وكان ولانى بلدتكم هذه فأجعلونى فى حل، ولكنهم اعتقدوا فيما يبدو أن الموفق أصبح غاضبا عليه، فما كان يتأتى فى نظرهم أن يترك أحد الولاية باختياره، وأحبوا أن يكافئوه بشئ، فجمعوا له مال وهدايا:

«وجهدوا أن يقبل منها شيئا فأبى»

وذهبت الإمارة وذهب معها كل ما يحيط بها، وما يكمن فيها من مفاسد وسيئات، وتحلل الشبلى بذلك مما كان ينوء به من مظاهر الدنيا.

٢ - أما الأمر الثانى فهو ما يعبر عنه صاحب الوفيات وغيره بقوله: «ومجاهداته فى أول أثره فوق الحد».

وتغيرت حالة الشبلى رأسا على عقب: لقد تغيرت فى الأصدقاء، وكان أصدقاؤه من حاشية الموفق، ومن الأثرياء وأصحاب الجاه، ولكنه بعد التوبة صحب الشيخ (أبا القاسم الجنيد) ومن فى عصره من الصلحاء ومن فى طبقة الجنيد.

* * *

وإذا كنا نعرف أن الموفق قد مات سنة ٢٧٨هـ فمعنى هذا أن الشبلى عاش فى القرن الثالث الهجرى.

ويورد لنا الدكتور محمد كمال جعفر فى كتابه (رحلة بين العقل والوجدان) عن الظروف والملابسات التى حملت الشبلى على تغيير نظم حياته فى بلاط الخلفاء.

ويورد ما أورده العطار عن أن الشبلى لما قصد بغداد أيام إمارته على (دوماند) صحبه أمير الرى وجماعة من الموظفين لحضور مراسيم إلباس أميرهم خلعة منصبه، وبعد تمام مراسمه وتفرق الحضور خرج الأمير ومن معه إلى حال سبيلهم وعليه الخلعة.

وفى الطريق ضايقته عطسة فتلقاها بكم الخلعة دون أن يدرى أن ذلك خروج على التقاليد التى تفرض احترام الخلعة، ونمى الخبر إلى الخليفة الذى استدعى الأمير وأهانه وصفعه على قفاه وانتزعت منه الخلعة وسلبت منه الإمارة.

ويقول العطار: أن الشبلى تأثر غاية التأثر من هذا الحادث ونتائجه وأخذته الفكرة فقال لنفسه: إذا كان من استعمل خلعة مخلوق منديلا مستحقا للعزل محكوما عليه بردها، فماذا يصنع بمن فعل ذلك بخلعة رب العالمين؟

ويستأنف العطار:

وقصد الشبلى إلى مجلس الخليفة فسئل ما خطبه؟

فقال الشبلى:

أيها الخليفة إنك مخلوق ولا ترضى أن يساء الأدب مع خلقتك، وتقديرك لها معلوم، وقد خلع على الله خلعة من محبته ومعرفته ومن المحال أن يرضى باستعمالها منديلا فى خدمة المخلوقين.

* * *

لقد سلك إذن أبو بكر الشبلى طريق الصوفية، والصوفية يقول عنها المؤرخ الكبير ابن خلدون:

«إن هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها وما يقبل عليه الجمهور من مال وجاه ثم الانفراد عن الخلق بالخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما فى الصحابة والتابعين من السلف، فلما نشأ الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة والتقرب إلى الله باسم الصوفية أو المتصوفة».

ويقول الإمام القشيرى عنه فى الرسالة القشيرية إنه بغدادى المولد والمنشأ وأصله من (أسرو وشنة) صحب الجنيد ومن فى عصره، وكان شيخ وقته حالا وظرفا وعلما، مالكى المذهب، عاش سبعا وثمانين سنة ومات سنة أربعة وثلاثين وثلاثمائة، وقبره ببغداد، لما تاب الشبلى فى مجلس (خير النساج) أتى دماوند وقال: كنت والى بلدكم فاجعلونى فى حل. وكانت مجاهداته فى بدايته فوق الحد.

وملخص ما قاله عنه الإمام القشيرى.. إنه كان يقول فى آخر أيامه:

وكم من موضع لومت فيه

لكننى فيه نكالا فى العشيرة

أما فى شهر رمضان، فقد كان الشبلى يجتهد فى العبادة ويقول:

هذا شهر عظمه ربى فأنا أول من يعظمه.

وكان ينصح مريديه بقوله:

أضرب بالدنيا عاشقيها، وبالأخرى وجه طالبيها.. وسلم نفسك وقد وصلت فإذا قلت:

الله فهو الله، وإذا سكت فهو الله وهذا هو المقام العظيم.

وكان يقول عن الزهد: **تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء.**

وكان يقول عن الخوف: **أن تخاف أن يسلمك إليك.**

والمحبة عنده هى صراط الأولياء.

والحب هو منتهى أمل هؤلاء الذين عاشوا فى الله وبالله.. إنه يعمر قلوبهم بالخالق الأعظم، واهب الحياة، وخالق الوجود.

والقرآن الكريم يقول:

﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١].

فحب الله ليس كلمة تقال..

ولكنه عمل يفضى إلى هذا الحب..

تقوى تصل قلب الإنسان بخالقه..

عمل بالكتاب والسنة . . بإقامة الحلال . . والبعد عن الحرام .
والرسول العظيم عليه الصلاة والسلام يقول :
«لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»
ويورد لنا الدكتور عبدالحليم محمود عن الحب عند الشبلى وأن الصوفية يقتدون بالشريعة وتصرفات الرسول .
يقول الشبلى :
«إن من قلت همته، ضعفت محبته»
فمع الهمة إذن صعودا وهبوطا تكون المحبة صعودا وهبوطا، ولقد جلس عنده جمع من المريدين، فوجدهم فى غفلة لا يذكرون فقال فى حزن :
كفى حزنا بالواله الصب أن يرى
منازل من يهوى معطلة قُفرا!
وسئل مرة عن أعجب شئ قال :
من عرف الله ثم عصاه . .
ولا يسر المحب شئ أكثر من موافقة من يحب .
قال أبو القاسم عبد الله بن على البصرى : قال رجل للشبلى :
إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟
قال :
إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته . . وأنشد :

أسر بمهلكى فيه لأنى أسر بما يسر الآلف جدا

ولو سئلت عظامى عن بلاها

لانكرت البلى وسمعت جحدا

ولو أخرجت من شقى لنادى

لهيب الشوق بى يسأله ردا .

ولا بد للمحب من الأدب الكامل فى القول فضلاً عن السلوك .

الانبساط مع الحق بالقول ترك أدب!

* * *

ويلخص شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردى آراء أبو بكر الشبلى فيقسمها إلى قسمين:

- آراؤه ذات المذاق الصوفى الخاصة ببعض مسائل الدين .

- آراؤه فى التصوف وما يتبع التصوف من زهد أو توكل أو غيرها .

وعن القسم الأول يحدثنا عن عصره وكيف شاعت بدعة البحث عن الله تعالى، وشاعت فكرة إثبات وجود الله. وكان موقف الصوفية فى هذا هو موقف الفطرة السليمة الصادقة، والفطرة السليمة الصادقة ترى الله فى الأنفس وفى الآفاق، إنها ترى الله فى آياته، فى نعمه التى لا تحصى فى كل شئ فى الوجود. . ولقد سأل بُكيرٌ ـ تلميذ الشبلى قائلاً:

يا أستاذ. أين أبغيه؟

فقال له:

ثكلتك أمك وهل يبُغَى من يأخذ السموات على أصبع والأرضين على أصبع فيهزهما ويقول:

أنا الملك، أين الملوك؟

ثم يقول الشبلى معبرا عن رأيه الصادق:

«إن الله لم يحتجب عن خلقه، إنما الخلق احتجبوا عنه بحب الدنيا».

والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شئ فكيف يدرك بقياس أو بإمعان نظر على حد تعبير ابن عبد البر؟

ولقد سئل الشبلى فى ذلك، قال رجل له:

هل شاهده أحد على الحقيقة؟

فقال:

الحقيقة بعيدة ولكن ظنون وأمانى وحسبان، ثم أنشد:

وكذبت طرفى فيك والطرف صادق

وأسمعت أذنى منك ما ليس تسمع

ولم أسكن الأرض التى تسكنونها

لكيلا يقولوا إننى بك مولع

فلا كبدى تهدا، ولا لك رحمة

ولا عنك إقصاء ولا فيك مطمع.

فإذا تراءى له تحقيق حال، شوشه بالتلبيس والأشكال.

ولقد أثار الناس من الفتن والجدل والمراء بمناسبة قوله تعالى:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

وسئل الشبلى عن هذه الآية الكريمة فقال هذه الإجابة السديدة العميقة:

الرحمن لم يزل، والعرش محدث، والعرش بالرحمن استوى.

ويقول الشبلى فى صورة من الحسم الحاسم:

أيقنت أن المحدث لا يدرك القديم.. أى لا يدركه إدراك ذات، ولا إدراك إحاطة، ولكن يدركه إدراك وجود وإدراك صفات.

وللشبلى طرائف جميلة فيما يتعلق ببعض الآيات القرآنية:

لقد سئل عن أرجى آية فى القرآن الكريم فقال:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم﴾ [الأنفال: ٣٨].

فإذا كان الله تعالى أطلق للكفار دخول الجنة بذكر لا إله إلا الله مرة واحدة، أترى من واظب عليها طول عمره كيف يمنع من دخول الجنة وهو طاهر من نجاسة الشرك؟

وسئل عن قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]

فقال: **ادعونى بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة.**

وسئل عن قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

فقال: **كل ما دون الله لغو.**

أما عن آرائه فى المحيط الصوفى فلخص ما قاله الإمام السهروردى فهو يرى أن التصوف لا ينفصل عن الشرع، وأن الصوفية قوم محبون، والمحب يطيع من أحب.

وكان يحذر مريديه من مخالفة الشرع ويقول «**لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء حتى تخرج من دار الغرور إلى دار الأمن**».

ويروى أن أحدهم رآه فى المنام فسأله:

يا أبا بكر من أسعد أصحابك بصحبتك؟

فقال:

أعظمهم لحرمات الله، وألهجهم بذكر الله، وأقومهم بحق الله، وأسرعهم مبادرة فى مرضاة الله، وأعرفهم بنقصانه وأكثرهم تعظيمًا لما عظم الله من حرمة عباده.

وكان يرى أيضا أنه لابد من الاجتهاد والمجاهدة لكنهما لا يوصلان إلى شئ من الحقيقة لامتناعها عن أن تدرك بجهد أو اجتهاد، وإنما هى مواهب يصل العبد إليها بإيصال الحق تعالى لا غير، ولولا أنه تعالى بدأهم بالمحبة وهداهم لما أحبوه.

* * *

وقد كان الشبلى شاعرا مجيدا . . ورغم قلة شعره إلا أن شعره كان يمتاز بما يمتاز به الشعر الصوفى من صدق ورقة وشفافية . . ومن أجمل أشعاره تلك الأبيات الجميلة التى قالها وهو يستشف أعماق الإنسان، وتيهه فى هذه الدنيا التى لا تدوم لأحد . . فليس القبور التى يقصدها عندما يتحدث عنها هى تلك التى تضم رفات الإنسان بعد الرحيل، ولكنه يرى هذه القبور هى التى يحملها الإنسان بين طياته . . فلا يعرف حقيقة نفسه اللاهية عن الله . . إنه يقول:

أقلل ما بى فيك وهو كثير

وازجر دمعى فيك وهو غزير

وعندى دموع لو بكيت ببعضها

لفاضت بحور بعدهن بحور

قبور الورى تحت التراب وللهوى

رجال لهم تحت الثياب قبور

سأبكى بأجفان عليك قريحة

وأرنو بألحاظ إليك تشير

ومن أجمل ما قرأت له هذه الأبيات التى يتحدث فيها عن المحبين لله . . إن الحب لله متعة فائقة لا تستطيع الكلمات أن تجسدها . . ولا يستطيع العقل الإنسانى أن يعبر عنها . . ومهما كان التعبير فإنه لا يستطيع أن يصل إلى مستوى ما يحسه المحب من وجد . . إنه يرى المحبين أحياء سواء أكانوا أحياء أم أمواتا:

إن المحبين أحياء وإن دفنوا

فى التراب أو غرقوا فى الماء أو حرقوا

أو قتلوا بسيوف وسط المعركة

أو حتف أنف وإن أضناهم الغرق

لو يسمعون منادى الحب صاح بهم

يوما للباه من بالحب يحترق.

ومن الأشعار التى كان يرددها كثيرا تلك الأبيات التى تحمل أنقى المعانى، وأرق المشاعر، وأجمل الكلمات:

يحبك قلبى ما حييت فإن أمت

يحبك عظم فى التراب رميم

والهجر لو سكن الجنان تحولت

نعم الجنان على العبيد نعيما

وقوله:

ذكرتك لا لأنى نسيتك لمحة

وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى

وكدت بلا وجد أموت من الهوى

وهام علىّ القلب بالخفقان

فلما أرانى الوجد أنك حاضرى

شهدتك، موجودا بكل مكان

فخاطبت موجودا بغير تكلم

ولاحظت معلوما بغير عيان

***

وأبو بكر الشبلى الذى رفض الجاه والسلطان والثروة، وفضل أن يكون واحدا من عباد الله المخلصين، يعمل صالحا، ويجنب الناس آثامه وشروره، ويتجه بكل كيانه المحب إلى الله.. كان الشبلى موضوع اهتمام كل من أرخ له من رجال الصوفية.

يروى عنه أنه ذهب إلى مسجد أبى بكر بن مجاهد وأنه عندما ذهب استقبله أبو بكر واقفا، وعندما سأله أصحابه إنك لم تقم لعلى بن عيسى الوزير وتقوم للشبلى.

حكى لهم السبب فى ذلك، وأنه رأى الرسول عليه الصلاة والسلام فى النوم فقال له:

- يا أبا بكر إذا كان فى غد سيدخل عليك رجل من أهل الجنة فإذا جاءك فأكرمه؟

قال ابن مجاهد:

فلما كان بعد ذلك بثلاثين أو أكثر، رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى:

يا أبا بكر أكرمك الله كما أكرمت رجلا من أهل الجنة.

فقلت: يا رسول الله.. بم استحق الشبلى هذا منك؟

فقال: هذا رجل يصلى كل يوم خمس صلوات، يذكرنى فى إثر كل صلاة ويقرأ:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

أفلا أكرم من يفعل هذا؟

* * *

وظل الرجل يعيش حياته محبا لله.. زاهدا فى دنياه.. موقنا أن ما عند الله خير وأبقى.

وكان لابد أن يمضى إلى رحاب ربه كما يمضى كل الناس.. وكان لابد لشمس حياته أن تغرب كما سيغرب كل حى.. لتشرق فى عالم خالد لا يفنى.

رحل بعد أن عاش على الأرض ٨٧ سنة، ومات سنة ٣٣٤هـ.

ويروى الرواة.. والذين درسوا سيرة حياته. أنه فى الليلة الأخيرة فى حياته كان يردد:

كل بيت أنت ساكنه

غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا

يوم تأتى الناس بالحجج

رحل قيثارة الحب الإلهى، وظلت سيرة حياته وكلماته وسلوكياته، عطرا تضوع به ذاكره الأيام.. وذكرى طيبة لكل من ييمم وجهه إلى طريق الله.

وستظل كلماته نور هداية لمن عرفوا الدنيا على حقيقتها، فلم تلههم عن ذكر ربهم.. والتقرب إليه، وابتغاء ما عنده من محبة ورضوان.





الحارث بن أسد المحاسبي

إنه واحد من أقطاب الصوفية.

وإذا كنا لا نعرف بالضبط يوم مولده إلا أن الباحثون والدارسون قالوا عنه أنه ولد فى البصرة، وعاش فى بغداد، وأن مولده كان على الأرجح فى عام ١٦٥ للهجرة (٨٧١م) وتوفى عام ٢٤٣هـ (٨٥٧م)..

وحياة هذا الرجل حياة بالغة الثراء.. فقد كان عالما جليلا.. درس الفقه، وتعمق فى شريعة الله، كما درس المذاهب فى عصره، واطلع على ما كان يقول به علماء الكلام من المعتزلة، كما درس كل علوم عصره واستوعبها وفهمها، ولكنه آثر أن يكون طريقه هو طريق الصوفية.. فلم يجنح إلى ما كان يجنح إليه أهل الكلام ولكنه كان يرى أن الإسلام هو دين الفطرة.. دين النقاء.. وأنه لا تعقيد فيه ولا غموض ولا التواء.

وإذا كان الإسلام يدعو إلى التوحيد أولا، ثم فرض فروضا، وأقام نوافل، فإن على المؤمن أن يتمسك بهذه الفروض، وأن يقوم النوافل حتى يقترب من الله، وهذا يتأتى أيضا بالتمسك بالأخلاق النبيلة، والبعد عن الأخلاق الذميمة.. وهذا يحدث بالمجاهدة.. مجاهدة النفس وحثها على التطبع بقيم الإسلام، وقد سمى بالمحاسبى لكثرة ما كان يحاسب نفسه!

وقد كان للحارث بن أسد العديد من المؤلفات الهامة، بعضها مازال موجودا، وبعضها لم يعرف عنها الباحثون شيئا، وإن كانوا

يعرفون عنها بعض مضمونها من خلال تناوله فى كتبه الأخرى لهذه المؤلفات التى تربو عن المئتين. . ومن أشهر كتبه (الرعاية) الذى تأثر به الإمام الغزالى عندما كتب (إحياء علوم الدين).

ويرى الدكتور التفتازانى أن للمحاسبى كلام فى مقامات الطريق إلى الله وأحواله فيه عمق التحليل، فمن ذلك ماروواه العطار فى (تذكرة الأولياء):

- أساس العبادة الورع، وأساس الورع التقوى، وأساس التقوى محاسبة النفس، وأساس المحاسبة الخوف والرجاء، والخوف والرجاء يرجعان إلى العلم بالوعد والوعيد، وفهم الوعد والوعيد يرجع إلى تذكر الجزاء، وتذكر الجزاء يرجع إلى الفكر والاعتبار.

وهكذا يشيد المحاسبى بالعقل من حيث أنه قادر على إدراك حكم الأوامر والنواهى، ولكن لابد أن يقترن بالتخلق وهذا ـ فيما يبدو ـ معنى قوله:

«لكل شئ جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر».

ويفرق المحاسبى أيضا بين العلم النظرى بالإيمان، والعلم به مع العمل، كما يفرق بين العمل الظاهر بحركات الجوارح وعمل القلوب، قائلاً:

«العمل بحركات القلوب فى مطالعات الغيوب أشرف من العمل بحركات الجوارح».

وقد كان لكلام المحاسبى فى النفس، والسلوك ومقاماته

وأحواله، أثر على من جاء بعده من الصوفية كالغزالى الذى أفاد من كتابه (الرعاية) عند كتابته (الإحياء).. وكالشاذلية الذين نصحوا مريديهم بقراءة (الرعاية) ولخصه أحد شيوخهم وهو عز الدين المقدسى.

***

وللدكتور عبد الحليم محمود دراسة عميقة عنه، نال بها درجة الدكتوراه من جامعة باريس بعنوان (أستاذ السائرين: الحارس بن أسد المحاسبى) وفيها تعرض لفكرة وآرائه ووجهات نظره المختلفة فى الأمور المتعلقة بالمذاهب والأخلاق، وعلم الكلام، كما تعرض لمنهجه فى التفسير، ومفهوم فكرة الله والعالم، والغرض والنفل، كما يلف ضوءا على تصوره ليوم القيامة، ونظرية الزهد والتصوف.

وقد اعتمدت على هذه الدراسة الهامة فى تكوين رؤية لهذه الشخصية الهامة فى تاريخ الفكر الصوفى.

كان مولد المحاسبى كما يقول الدكتور عبدالحليم محمود فى مغرب خلافة المهدى، وهو من أوائل الخلفاء العباسيين، وكان قد بلغ من العمر خمس سنوات عندما تولى الخلافة هارون الرشيد، وكانت الأمة الإسلامية غنية بالمفكرين البارعين وخاصة فى رحاب العاصمة بغداد.. نذكر منهم مالك المتوفى سنة ١٧٩هـ، وأبو يوسف المتوفى سنة ١٨٢هـ، وابن الحسن المتوفى سنة ٢٠٤هـ، والشافعى المتوفى سنة ٢٠٤هـ فى الشريعة.

ونذكر منهم العلاف المتوفى سنة ٢٢٦هـ، والنظام المتوفى سنة ٢٣١هـ، والجاحظ المتوفى سنة ٢٢٥هـ فى الإلهيات والأدب.. وأبو نواس فى الشعر، والكرخى، والحافى وذو النون فى التصوف.

* * *

فى هذا الجو إذن عاش ومات المحاسبى..

ومن دراسة هذا العصر نجد أن علم الكلام كان قد انتشر فى المجتمع، وقد أيد المعتزلة بعض الخلفاء كالمأمون مثلا.. كما انتشر فيه أهل السنة الذين كانوا ينئون بأنفسهم عن الجدل العقيم فى أمور الدين، ويرون الرجوع إلى الكتاب والسنة دون تأويل.

وكان هناك أهل التصوف الذين يعرفون الله بالبصيرة.. ولا يجرون وراء النظريات الفلسفية التى تفسد القلوب والعقول، وقد كان المحاسبى من الذين وجدوا فى التصوف طريق الخلاص، ولكنه التصوف المستمد من الكتاب والسنة، وليس من روافد بعيدة عن الإسلام.

كان ضد الرياء.. وضد النفاق.. والثواب عنده هو ما يصدر عن نية خالصة..

وكان دائما يردد الحديث الشريف:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وكذلك كان يردد هذا الحديث عن عمر بن الخطاب قال:

بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لايُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ فقال يا محمد: أخبرنى عن الإسلام؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

قال: صدقت.

قال: فعجبنا، يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرنى عن الإيمان؟

قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

قال: صدقت.

قال: فأخبرنى عن الإحسان؟.

قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

قال: فأخبرنى عن الساعة؟

قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

قال : فأخبرنى عن أماراتها؟

قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان».

قال: ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال لى:

«يا عمر أتدرى من السائل؟»

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»

ومن أقواله حول أهمية أن يكون الإنسان صادقاً:

«علامة الرجل الذى أدرك إرادة الله: أن نيته خير من عمله، وعمله خير من كلامه، وهو دائم التأمل فى الله».

ومن أقواله:

اعلم أن الحكيم الذى رسخت عقيدته يرعى فى الصدق مجانبة غضب الله.

ومن أقواله أيضا:

«تحريف الدين من انحراف القلوب».

ومن أقواله:

«إن اردت أن تعرف نفسك فاختبرها بالقرآن».

* * *

كان يرى أن الإسلام بسيط جدا.. ليس فى حاجة إلى هذه التعقيدات التى يحاول الفلاسفة وعلماء الكلام أن يلصقوها به.. لقد عرفه الصحابة أيام الرسول عليه الصلاة والسلام، دينا بسيطاً لاغموض فيه.

الأيات الكريمة فى القرآن الكريم توضحه بسهولة ويسر:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

ما يجب أن يعرفه الناس فى أمور معتقداتهم توضحه مثل هذه الآيات الكريمة:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة ١-٥].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء : ١٣٦].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء ١٢٥].

وحديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يبين جوهر العقيدة والعبادة والأخلاق الإسلامية:

فقد سأل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ما الإسلام؟

فقال: «إن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا».

والدين بسيط للغاية.. تعاليمه واضحة للغاية.

وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

إذا كان هذا الإسلام ليس فى حاجة إلى طلاسم.. وأنه واضح كل هذا الوضوح.. فلماذا الجدل والسفسطة والجرى وراء المذاهب الكلامية وغير الكلامية.

ويروى لنا الدكتور عبد الحليم ظلالا على شخصيته فيقول:

وأما عن الرجل فى نضجه شيخا وكهلاً، فلم تصلنا سوى نوادر قليله، ولكن شخصيته رغم النقص الظاهر فى الوثائق بشأنها تبرز لنا من خلال هذه النوادر، وتشف من ثنايا تعاليمه إن أمعنا فيها النظر، وشخصية الرجل ساطعة.. فهو صاحب عبقرية خلاقه، وهو رجل أصول، وهو إنسان صريح بالغ الصراحة، ومخلص عميق الإخلاص.

ويروى فى هذا المقام بعض النوادر التى تتعلق به . . نسوق منها :

وكان الجنيد مثال الصوفى النقى المحافظ المتحرر ، وكان يميل إلى حياة العزلة بعيدا عن ضوضاء المجتمع ، فزارة المحاسبى يوما ودعاه إلى السير معه وبعض الرفاق فى الصحراء ، فكره الجنيد الدعوة خشية الاتصال بالناس والسير معهم ، ولكن المحاسبى انطلق به غصبا وقال له :

كم تقول لى : أُنْسى فى عزلتى ، لو أن نصف الخلق تقربوا منى ما وجدت بهم أنْسا ، ولو أن النصف الآخر نأى عنى ما استوحشت لبعدهم .

وكان المحاسبى شديد الحاجة فاجتاز بالجنيد يوما وهو جالس على بابه .

قال الجنيد : فرأيت فى وجه زيادة الضر من الجوع

فقلت له : يا عم ، لو دخلت إلينا نلت من شئ عندنا

فقال : أو تفعل؟

قلت : نعم ، وتسرنى بذلك ، فدخلت بين يديه ودخل معى ، وعمدت إلى بيت عمى ، وكان أوسع من بيتنا ، لا يخلو من أطعمة فاخرة لايكون مثلها فى بيتنا سريعا ، فجئت بأنواع كثيرة من الطعام ، فوضعته بين يديه ، فمد يده وأخذ لقمه فرفعها إلى فيه ، فرأيته يلوكها ولا يزدردها ، فخرج وما كلمنى ، فلما كان الغد لقيته . .

فقلت : يا عم سررتنى ثم نغصت على!

فقال: يا بنى، أما الفاقة فكانت شديدة، وقد اجتهدت أن أنال من الطعام الذى قدمته إلى، ولكن بينى وبين الله علامة، إذا لم يكن عند الله مرضيا ارتفع إلى أنفى منه فوره، فلم تقبله نفسى، فقد رميت بتلك اللقمة فى دهيلزكم وخرجت !

***

وقد كان المحاسبى عميقا فى فهمه لصحيح الدين.. فيقول عن الله عز وجل: «يدعوك إن أدبرت، ويقبلك إن رجعت، ويحمدك على حظك، ويثنى عليك بما وهب لك، ويحضك على النظر لنفسك.

إنما يُمرِضُك ليصُحَّكَ- إن عقلت- ويفقرك ليغنيك، ويمنعك ليعطيك.. يمنعك القليل الفانى لترضى فيعطيك الجزيل الباقى، ويميتك ليحييك، ويفنيك ليبقيك، ويداويك بالأمراض لتبرأ من سقم الذنوب، ويغمك بالأوجاع ليغسلك من درن الخطايا، ويعركك بالبلاء ليلين قلبك لطلب الفوز.

ابتدأك بالنعم قبل أن تسأله.. وثناها بعدما ضيعت شكره، وأدامها بإحسانه مع دوام الإعراض منك عنه».

***

ومن أجمل رؤياه للعالم الآخر، هذه الرؤية التى لا تخرج عن فكر أهل للسنة، وهيكل هذه الرؤية الأساسى كما يلخصها الدكتور عبدالحليم محمود: يرى المحاسبى أن الإنسان إذا حضر أجله رأى

ملاك الموت فى مظهر جميل غاية فى الجمال، أو فى مظهر مخيف، ويحدثه هذا الملاك إما بالوعود الباسمة وإما بالوعيد، حسبما أتى فى دنياه من خير أو شر.

وبعد أن يهال عليه التراب، ينزل إليه ملكان يسألانه، فإذا كانت حياته خير يسرت عليه الإجابة.. وإن كانت حياته شرًا تردد فى الإجابة وأثقل..

ويفتح الملكان طاقة فى القبر يلمح منها الجنة بكل روعتها أو جهنم وما أعد فيها من عذاب طبقا لما كانت عليه إجاباته.

ويندثر جسم الميت، ولكن يبقى فى روحه إلى يوم البعث إما السعادة وإما الشقاء.

فإذا مات سائر البشر، ولم تعد الأرض تحمل مخلوقًا من الأحياء، ولم يبقى إلا الله الخالد، تسمع أرواح الناس نداء يدعوها إلى الحساب الأخير.

عندئذ تنشق القبور ويخرج الجميع إلى حيث مصدر النداء. وإذا اجتمع الكل اندثرت الكواكب، وانطفأ نور الشمس والقمر، وأظلمت الأرض، وانشقت السماء، وعندئذ تنزل الملائكة لتنصت إلى الحساب الأخير.

ويرى الناس الملائكة كالعمالقة، فيسألونهم إذا كان الله بينهم، فترتعد الملائكة لذكر اسم الله ويجيبون: «سبحان الله، إنه ليس بيننا».

ثم يصطفون حول المخلوقات المجتمعة، ولمّا يكتمل التفاف الملائكة بالمخلوقات، تعود الشمس إلى الظهور من فوق رءوسهم، وتبلغ حرارتها مقدار عشر سنوات من الحرارة، ولا ظل إلا ظل عرش الله، ويستمر لظى الشمس والضيق الناتج عنه ثلثمائة عام، حتى تطلب المخلوقات حسابا ولو كان يصيرها إلى جهنم، وتتوسل فى سبيل ذلك إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى حتى يشفعوا لهم فى ذلك عند الله، فيكون جوابهم:

إن غضب الله عظيم، وأنهم مشغولون بأنفسهم وإن كانوا أنبياء.

عندئذ تسعى المخلوقات إلى محمد، فيشفع لها عند الله، فيأذن الله بالحساب.

ويأمر الله جبريل بأن يحضر إليه جهنم، وترتعد جهنم نفسها خشية عقاب الله، ولكنها ترى أن غضب الله يقع على المخلوقات فتغضب هى الأخرى عليهم. ويسأل الله أنبياءه:

«ماذا كان موقف الناس من دعوتهم؟»

فيجيبون على استحياء: لسنا ندرى وأنت العليم.

وفى هذه اللحظة يتنكر الابن لأبويه، والأبوان لابنهما، والصاحب لصاحبه، وكل يسعى إلى ذكر ما كان له من فضل على الآخر فى الدنيا حتى يظهره فى الآخرة.

وقبل الحساب تمد جهنم برقبتها لتلتهم بعض المخلوقات، مستبقه الحكم عليهم، ثم تأتى الجنة فتستقبل من المخلوقات من كان يحمد

الله فى كل حال، ومن كان يسهر الليل فى ذكره، ومن لم تشغله أمور الدنيا عن عبادته، ثم تطير الكتب فتستقر فى أيدى الناس، إما اليمين منها وإما الشمال، ثم ينصب الميزان، ويتقدم إليه الناس، والملائكة يزنون أعمالهم، فإذا رجحت أعمال الخير قسمت للمرء الجنة، وإلا كان مصيره جهنم.

وتأتى كائنات من لهب لتسير بالناس إلى الله، فيقرأ كل إنسان كتابه، ويسأله الله عما اقترفه من شر فى الدنيا، وكيف ارتكب هذا الشر برغم ما أفاضه عليه من نعم، ثم يكون حكم الله له أو عليه.

ولكن على الإنسان قبل دخوله الجنة أو السقوط فى جهنم أن يجتاز شريطا ضيقاً كالسيف قد علق من فوق النار، يمشى عليه حاملا جميع ذنوبه على ظهره، وكل خطوة فوقه ألم رهيب، ولهيب النار يصعد إليه، ويلفح من فوقه، فمن كان ممن حكم عليهم زلت قدمه وسقط فالتهمه الجحيم

وأما الرجل الذى كان خَيّرًا فى دنياه فيمشى على الشريط فى يسر وثقة، ويرى الجنة قبيل الوصول إلى نهاية الشريط..

وقبل دخول الجنة يغتسل فى عين ماء طاهرة شافية، يرتد بها إلى الشباب، ويتوج بالجمال.. ثم يشرب من عين أخرى فيتطهر من كل أفات القلوب، فإذا ما أتم ذلك كانت له الجنة التى يعرض المحاسبى لها بالوصف بعد ذلك، ووصفه تجميع لكل العجائب التى يمكن أن تخطر على بال :

فمن أرض الجنة تتصاعد العطور، والقصور عليها من الأحجار الكريمة، والنساء فيها مكتملات الجمال.. وينبهر المرء أمام الجمال الساطع الذى يشهده فى هاتيك الحور العين، وهن كثرة يسقين الرجال ما طاب من الشراب، فى كئوس من فضه وذهب حليت باللؤلؤ.

ويرى الدكتور عبد الحليم محمود أن هذا الفصل من كتاب المحاسبى ملفت للنظر بما فيه من تصوير بارع للملذات الجسدية مع الحور، ولا شك أن الموضوع مهيأ للتخيلات الشاعرية بصفة خاصة، بيد أن أسلوب المحاسبى فى رسم اللوحات التى ابتكرها فكره، وصل هنا إلى قمة كماله.. ويمكن القول بأن هذا الفصل واسطة العقد من الكتاب.

* * *

وبالطبع فإن هذه الصور الجميلة التى تخيلها الحارث المحاسبى، صورة كونها الخيال الأدبى.. لأن ما يوجد فى العالم الآخر من نعيم أو شقاء.. من جمال وقبح.. إنما كل ذلك من الأمور الغيبية التى يعجز العقل الإنسانى عن تصورها.

صحيح أن الجنة هى النعيم المقيم، والسعادة الأبدية.

وصحيح أيضا أن الجحيم هو الشقاء والتعاسة التى لا يتصورها عقل بشرى.. خاصة عندما يصبح كل شئ يقينا.. الجنة وما فيها من نعيم، وجهنم وما فيها من الشقاء.

ولكن أمور الغيب هذه.. علينا أن نعترف بها، ونترك كنهها وطبيعتها لعلم الله.. لأن الرسول الكريم نفسه يقول لنا: «فيها ما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

ومادمنا سوف نرى مالم تره العيون فى الدنيا، ونسمع مالم تسمع الآذن فى الدنيا، وأن فيها ما لم يخطر على البال.. إذن علينا أن نؤمن بنعيم الجنة للذين رضى الله عنهم فأدخلهم فى واسع رحمته، ونؤمن بما سوف يلقاه من غضب الله عليهم من عذاب.. ولكن تصور ما سوف يحدث فهو فوق طاقة البشر، وفوق مدارك العقل الإنسانى، المحدود بحواسة المحدودة.. فالمهم أن نعمل عمل هؤلاء الصالحين من أهل الله، حتى ينطبق علينا ما قاله (إبراهيم النخعى):

«من أحسن الله صورته، ووسع رزقه، وبوأه منصبا صالحا.. ثم أدى حق الله فى كل هذا وتواضع كان من خاصة أهل الله».

ومن يقرأ المحاسبى أو غيره من الصوفية الكبار، الذين لم يجعلوا الدنيا أكبر همهم.. بل مجرد جسر.. يعبرونه إلى العالم الآخر.. لابد أن يقف طويلا ويتمثل قول أحدهم وهو (إبراهيم التيمى) الذى استطاع أن يقود زمام نفسه، ويلوى عنقها لتعمل الخير وتبتعد عن الشر.. أو كما قال هو:

تمثلت نفسى فى النار، أعالج أغلالها وسعيرها، وآكل من زقومها، وأشرب من غسلينها.. فقلت يانفسى: أى شئ تشتهين؟

قالت: أرجع إلى الدنيا فأعمل عملا أنجو به من هذا العذاب.

ثم تمثلتها فى الجنة مع ـ حورها ـ ألبس من سندسها واستبرقها، وحريرها.

فقلت يا نفسى: أى شى تشتهين؟

قالت: أرجع إلى الدنيا، فأعمل عملا ازداد به من هذا النعيم.

فقلت لها: ها أنت ذى فى الدنيا فاعملى.

فالعاقل إذن هو الذى يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ويعمل لآخرته كأنه سيموت غدًا على حد تعبير الإمام علىٍّ بن أبى طالب..

لقد جهد الحارث بن أسد المحاسبى أن يكون عبدًا صالحا.. وأن يعمل الخير، وأن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله، متجنبا كل بدعة تبعده عن صحيح الإسلام، والخير عنده معقود على النية.

والمحاسبى الذى قدم تراثا صوفيا رفيعا، يظهر فى كتبه ومؤلفاته الكثيرة.. ومنها على سبيل المثال: كتاب التوهم، والوصايا، وأدب النفوس وغيرها من الكتب الهامة، حتى قال عنه التميمى: إنه إمام المسلمين فى الفقه والتصوف والحديث والكلام.

ويقول لويس مسينيون عن كتابه الرعاية بأن المحاسبى سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً فى الآداب العالمية إلا نادراً.

* * *

مهما يكن من شئ . .

فقد عاش المحاسبى . . وكانت حياته إثراء للصوفية ودفعة لأفكارهم وشفافية روحهم .

ومات وترك تراثا مازال عطاؤه يتردد عبر القرون إلى الآن . . وسيظل مادام هناك نفوس تطمح إلى عالم النور والشفافية . . عالم الروح .

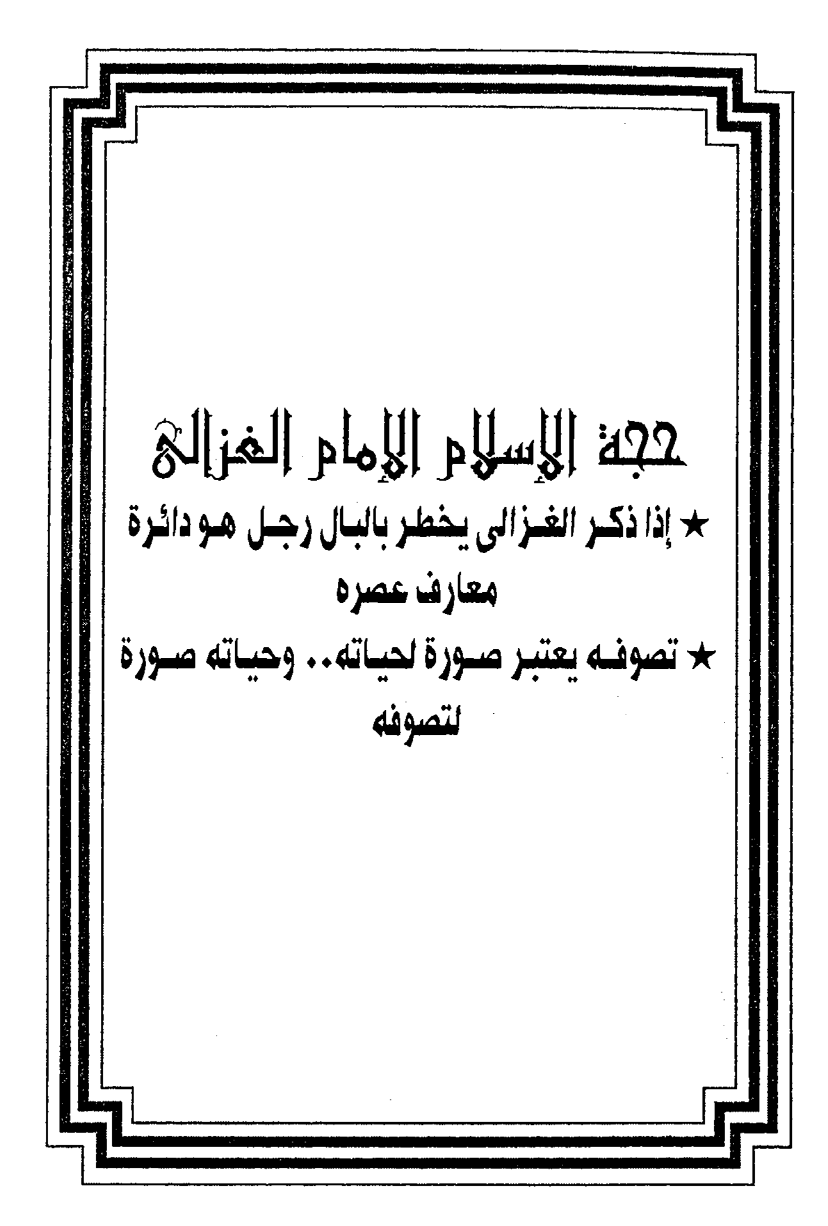
ويروى عنه أنه عندما حضرته الوفاة قال لمن حوله :

إن رأيت ما أحببت تبسمت لكم . .

وإن رأيت مالا أحب وجدتموه على وجهى . .

و . . رأوه . . يبتسم وهو يموت . .

* * *



حجة الإسلام الإمام الغزالي

★ إذا ذكر الغزالى يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره

★ تصوفه يعتبر صورة لحياته.. وحياته صورة لتصوفه

أبو حامد الغزالى شخصية بالغة الثراء.. بالغة الأثر فى تاريخ الفكر الإسلامى.. فقد كان لشخصيته وتفهمه ودراساته المتعمقة فى فلسفات عصره ونقدها وتفنيدها.. وقدرته الفائقة على فهم الإسلام الصحيح.. وتأملاته الرائعة.. وما كتبه مهاجما الفلسفة والفلاسفة الذين يشككون فى الدين.. مما جعله يسقط الفلسفة عن عرشها ويكشف عن تناقضاتها.. كل هذه الأمور جعلت منه بالفعل حجة الإسلام الإمام الغزالى.

والإمام الغزالى هو محمد بن محمد بن أحمد الملقب بأبى حامد.. ولد (بطوس) من أعمال خراسان عام ٤٥٠هـ وقد كان والده محبا للصوفية.. وكان فقيرا.. وعندما حضرته الوفاة أوصى بولديه أحمد ومحمد لأحد رجال الصوفية أن يرعاهما. وبالفعل عمل الرجل بوصية صديقه، وعندما نفد ما تركه أبوهما من مال الحقهما بإحدى المدارس وقال لهما:

«اعلما أننى أنفقت عليكما ما كان لكما، وأما أنا فرجل من الفقر والتجريد بحيث لا مالى لى فأواسيكما وأصلح حالكما، فما لكما ألا تلجآ إلى مدرسة، فإنكما طالبان للفقه عساه يحصل لكما مقدار قوتكما».

وحفظ الغزالى القرآن صغيرا، وتتلمذ فى الفقه على (أحمد بن محمد الطوسى).. وهاجر إلى جرجان ليتعلم على يد (أبى نصر الإسماعيلى).. ثم عاد الى طوس مرة أخرى، ولم يلبث أن رحل إلى نيسابور حيث أخذ يتعلم عن إمام الحرمين (أبو المعالى

الجوينى). . حيث درس علم الكلام وأصول الفقه، وعندما مات إمام الحرمين سنة ٤٧٨هـ، توجه الغزالى إلى العسكر حيث تعرف على الوزير المشهور (نظام الملك) الذى أعجب ببراعته وقدرته على النقاش عندما دارت محاورة فى حضرته بينه وبين العلماء، واستطاع الغزالى أن يبرز مواهبه، مما جعل الوزير يعهد إليه بالتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد. . وما كاد يلقى دروسه فى المسجد والمدرسة النظامية حتى ذاع صيته، وامتدت شهرته إلى مختلف الأرجاء. . فهو متحدث ذكى، متعمق فى الفقه دارس لكل ما فى عصره من فلسفات متمكن من علم الكلام. .

وشعر الغزالى باعتداده بذاته، ولكنه كان يشعر فى أعماق نفسه أنه ما كان يبغى فى مناظراته ودروسه التى يلقيها على الناس إلا الشهرة وذيوع الصيت. . وليس فى هذا إلا ما يبعده أن يكون علمه لوجه الله، وبدأت أزمته النفسية الحادة، وبدأت فى نفس الوقت شكوكه. . فهو عندما يتحدث لا يتحدث إلا لإظهار مواهبه وقدراته على الجدل والنقاش، ولكن أين كل ذلك من الإيمان الصحيح.

ومن هنا فقد أرقه الفكر والشك. . يصور هذه الفترة من حياته فى كتابه (المنقذ من الضلال) فيقول:

«ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ، وقد أنافت السن الآن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل فى كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عقيدة كل

فرقة، وأكشف أسرار مذهب كل طائفة.. لا أميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، ولا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيا إلا واقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلما إلا واجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومحاولته، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقا إلا وأتجسس وراءه للتنبه إلى أسباب جرأته فى تعطيله وزندقته، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان شبابى، غريزة وفطرة من الله وضعت فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى».

هذه الكلمات تبرز روح الإمام الغزالى التواقة إلى المعرفة، فحب المعرفة يملك عليه جوانب نفسه.. إنه يريد أن يعرف كل شئ.. ويلم بكل ما كان يجرى فى عصره من فلسفات. وهو العصر الذى امتلأ بفلسفة اليونان، وانبهار البعض بها.. وبفلاسفة اليونان الذين كانوا يحيدون فى (العقل) المرشد نحو تفسير كل ظواهر الحياة.. وإذا كانت هذه الفلسفات وهى تتخذ من العقل مرشدا ودليلاً للمعرفة قد بهرت الناس فى عصره، فلم يجد الإمام الغزالى فيها غضاضة فدرسها ووعيها تماما، ولكنه اعترض على جانب (ما وراء الطبيعة) منها.. فالعقل لا يمكنه أن يدرك ما وراء الحواس ومن هنا بدأ الغزالى هجومه العنيف عليها..

وقد كان عصر الغزالى (الخامس الهجرى) على حد تعبير الشيخ

محمد صادق عرجون فى كتابه (أبو حامد الغزالى. . المفكر الثائر). . عصره المد الحضارى فى ظل الإسلام جمع أشتات الأمم والشعوب بتراثها الفكرى وعقائدها وفلسفاتها وأخلاقها وعاداتها وعلومها ومعارفها وألوان تربيتها وضروب سلوكها فى الحياة. . ففلسفة الإغريق، وتنسك الهنود، وحكمة الصين، وزندقة الفرس وطقوسها الملكية، واشتراع الرومان ونظمهم الإقطاعية، وسائر ما عرف على وجه الأرض من ناتج العقل الإنسانى ووثباته وجموحه وضلاله وهدايته. . وجميع ما عرف من نظم اجتماعية، كلها أدت فى ظل الحضارة الإسلامية إلى ربوة ذات قرار ومعين من طبيعة الإسلام، فهضمها الإسلام وتمثلها فى داخل حقيقته الفكرية والاجتماعية صورة إنسانية موحدة الإطار وإن كانت متعددة الألوان مختلفة الرسوم.

وقد كان من أثر ذلك الامتزاج الحضارى أن أصبح المجتمع الإسلامى على ترامى أطرافه واتساع رقعته ميدانا لتفاعل تلك العناصر الفكرية والاجتماعية، ذلك التفاعل الذى تولدت منه التيارات العقلية والروحية المختلفة التى قامت فى ظلها الفرق المختلفة. . وفى أحضان هذه الفرق نشأ الجدل ونهض علم الكلام للدفاع عن العقيدة الإسلامية بسلاح خصومها الذين هاجموها بالجدل المنطقى تارة، وبالسفسطة الجدلية تارات. . ومن باب هذا الجدل الكلامى دخلت الفلسفة بقضاياها فى دراسة عوالم ما وراء الطبيعة، ووضعت الإلهيات والروحانيات موضع التحليل المنطقى لتقاس

بمقاييس الفروض العقلية . . ومن نافذة هذه الفلسفة فى دراسة النفس الإنسانية والبحث فى حقيقتها وأحوالها وصلتها بالجسم تفلسف التصوف إلى أن أصبح بهذه التفلسف النظرى المعقد فنى عقليا له قواعده وأصوله ومصطلحاته التى مزجته فى أكثر أحواله ولا سيما عند الطبقات المتأخرة من أربابه بالفلسفة النظرية فى فهم حقيقة العقل والروح والنفس، وهذه الحقائق هى التى يدندن حولها هذا التصوف المتفلسف . . ولم يكن أرباب التصوف العملى من متقدمى الطائفة يعنون بهذه المباحث النظرية .

الغزالى متصوفا

فى هذا الجو الفكرى الذى عاش فيه الغزالى . . وحارب بسلاحه المتمرس التيارات الدخلية على الإسلام كان يؤرقه أنه يقوم بذلك بدافع الشهرة لابدافع حب عقيدته . . فأرقه الشك . . وبرح به التفكير . . !

وبينما كان يلقى مواعظه للناس حدث ما غير مجرى حياته تماما . . فقد دخل عليه أخوه أحمد وهو يعظ الناس فقال له وكأنه يكشف ما يدور فى أعماقه:

أخذت بأعضادهم إذ ونوا

وخلفك الجهد إذ أسرعوا

وأصبحت تهدى ولا تهتدى

وتُسمع وعظا ولا تَسمع

فياحجر الشحر حتى متى

تسن الحديد ولا تقطع . . !

و . . كانت هذه نقطة تحول فى حياة الإمام العظيم، فقد اعتزل الناس، واعتزل الدراسة، وانقطع للعبادة . . يطلب من الله العون على أن يهديه إلى الطريق السليم . . ولم يكن غريبا أن يلجأ الإمام العظيم الى الصوفية، فقد تربى فى كنفها، وعاش بين أحضانها، ودفعه الحنين إلى أريج الروح عندما عصفت بحياته ماديات الحياة . . وفلسفات عصره البعيدة عن روح الإسلام الحنيف . . إنه يتحدث بنفسه عن هذه العزلة فى كتابه (المنقذ من الضلال) فيقول:

«فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من سنة، وأخيرا جاء دور العمل، وجاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، وقد قفل الله لسانى حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطيبا لقلوب المختلفين إلىَّ فكان لا ينطق لسانى بكلمة ولا يستطيعها البتة، ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطلت معه قوة الهضم حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج فقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم. ثم لاحظت أعمالى فإذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من جميع الجوانب، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم، فإنما أنا معتقل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة . . ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس، فإذا هى غير خالصة لوجه الله

تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أنى على شفا جرف هار، وأنى قد أشفيت على النار إن لم اشتغل بتلافى الأحوال، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأصل العزم يوما وأقدم فيه رجلا وأؤخر أخرى، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها ضد الشهوة حملة فتفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل، فلم يبقى من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع، فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار.

ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص والأمن السلم الصافى عن منازعة الخصوم ربما التفت إليه ولا يتيسر لك المعاودة، فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار».

ويقول الإمام الغزالى أيضا متحدثا عن هذه التجربة التى مر بها:

«ولما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى.. التجأت إلى الله

التجاء المضطر الذى لا حيلة له، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه وسهل علىّ الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والصحاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة، وأنا أدبر فى نفسى السفر إلى الشام حذرا من أن يطّلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام، فتلطفت فى الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبدا». .

واشتغل الإمام بعدها بالعبادة فى خلوته حتى اكتشف أنه من خلال حياته الروحية تلك عرف ما لم يكن يعرفه، وألهمه الله المعرفة، وهداه إلى الطريق السليم. . فقد صفت روحه، وشفت نفسه، وعندما التقى بأحد رجال الصوفية (يوسف النساج). . أخذ بيده. . ليسلك طريق الهدى والنور. . ويروى الغزالى كيف اطمأنت روحه الثائرة، وهدأت عندما رأى الله سبحانه وتعالى فى رؤيا منامية. . يعبر عنها بقوله:

«كنت فى مبدأ أمرى مفكرا لأحوال الصالحين، ومقامات العارفين، حتى صحبت شيخى يوسف النساج، فلم يزل يصقلنى بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات، فرأيت الله تعالى فى المنام فقال لى: يا أبا حامد، فقلت أو الشيطان يكلمنى؟ قال: لا، بل أنا الله المحيط بجهادتك الست. . ثم قال: يا أبا حامد ذر مساطرك وصاحب أقواما جعلتهم فى الأرض محل نظرى، وهم الذين باعوا الدار بحبى. .

قلت: بعزتك إلا أذقتنى برد حسن الظن بك؟

قال: قد فعلت، والقاطع بينك وبينهم كشاغلك بحب الدنيا،

فأخرج منها مختارا قبل أن تخرج منها صاغرا، فقد أفضت عليك أنوارا من جوار قدسى» . .

ويواصل الإمام الغزالى حديثه حول هذه الرؤيا العجيبة التى كانت نهاية مطاف راحته النفسية والروحية:

«فاستيقظت من نومى فرحا مسروا، وجئت إلى شيخى يوسف النساج فقصصت عليه المنام، فتبسم وقال: يا أبا حامد هذه الواحنا فى البداية. بل إن صحبتى ستكحل بصيرتك بإثمد التأييد، حتى ترى العرش ومن حوله، ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد ما لا تدركه الأبصار، فتصفوا من الأكدار طبيعتك، وترقى على طور عقلك، وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى».

إنى أنا الله رب العالمين

وبدأ طريق التصوف. . ومن خلاله كان يرى أن المعرفة من الله (أنها نور يقذف فى القلب). . .

لقد خرج الإمام الغزالى من مجاهداته إنسانا يؤمن بجلال الروح، وأن طريق الصوفية هو الذى يؤدى الى هذا الطريق الملئ بالأنوار. . وأن الصوفية لابد لكى لا تنحرف عن الجادة أن تتمسك بالكتاب والسنة، وكل خروج عن الكتاب والسنة مروق عن شرع الله الحنيف. . ويصف ذلك فى كتابه(المنقذ من الضلال) بقوله:

«إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم

أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».

ثم يقول: وماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها، وأول شروطها تطهير القلب عما سوى الله تعالى، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية فى ذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية فى الله، وأول هذه الطريقة المكاشفات حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق» . .

تهافت الفلاسفة

وكان من الطبيعى بعد أن درس الغزالى الفلسفة دراسة مستفيضة وعرف أسرارها، وفك رموزها، ما كان له أن يقف مكتوف الأيدى أمام من يخوضون فى أمور فوق مدارك العقل، ويحاولون من خلال العقل أن يعرفوا ما وراء الطبيعة، لقد رأى أن ذلك عبث . . وأن الفلاسفة الذين يخوضون فى هذا المجال ينحدرون نحو الزندقة . . ومن هنا فقد حرص على أن يظهر ما عليه هؤلاء الفلاسفة من تهافت . . أو على حد تعبير الأستاذ طه عبد الباقى سرور:

«والحق أن الغزالى كان له فضل إنزال الفلسفة من عليائها فقد جعل أسرارها علما واضحا لكل قارئ، وتلك قوة لم تعرف فى عالم الفكر إلا للغزالى، وقد ألف كتابه (مقاصد الفلاسفة) لهذا الغرض وأوضح غايته فى مقدمته بقوله:

«أما بعد فإنى التمست كلاما شافيا فى الكشف عن تهافت الفلاسفة وتناقض آرائهم ومكان تلبيسهم وإغوائهم ولا مطمع فى إسعافك إلا بعد تعريفك مذاهبهم، وإعلامك معتقدهم، فإن الوقوف على فساد المذاهب قبل الإحاطة بمداركها محال بل رمى فى العماية والضلال، فرأيت أن أقدم على بيان تهافتهم كلاما وجيزا مشتملا على حكاية مقاصدهم فى علومهم المنطقية والإلهية من غير تمييز بين الحق والباطل، بل لا أقصد إلا تفهم غاية كلامهم من غير تطويل».

ويقول الأستاذ طه عبد الباقى سرور معلقا على ذلك:

وحينما فرغ الغزالى من تلك الرسالة عمد إلى أخرى أشد صعوبة وأكثر التواء، وذلك هو تصديه لكل هؤلاء والتمييز بين حقهم وباطلهم.

درس الغزالى المذاهب الفلسفية كافة، ثم لخصها وركزها فى عشرين مسألة رئيسية استطاع أن يزيفها فى قوة وتفوق تزييفا جر عليه عداء الفلاسفة عداء ملتهبا قاسيا حتى أن ابن رشد كان يلقبه بالجاهل الشرير!

ولكنه من الناحية الأخرى رفع له مكانا فى الشرق، وخاصة بين الدينيين لم يستطع باحث أن يزاحمه فيه رغم توالى السنين والقرون.

ولا جدال فى أن الغزالى قد نجح فى حملته نجاحا باهرا لمكانته العلمية ولسلطانه الواسع على النفوس والقلوب، نجاحا نلمس أثره قويا واضحا فى الشرق، إذ أصبحت الفلسفة فيه حليفة الزندقة والالحاد.

ويرى باحثنا أن تلك الحركة أنتجت ثمارا طيبة لأنها خففت من غلواء المذاهب الفلسفية وأبعدت فتنتها عن كثير من العقول، إلا أنها كما يقول الغزالى فى موازينه العلمية:

«إن لكل شئ وجهين وجه خير ووجه شر»..

لأنها أنتجت من الناحية الأخرى فكرة متطرفة مسرفة فى التطرف ترمى إلى النفور من الفلسفة طالحها وصالحها بلا تمييز أو تفكير..

وبلغ من الغلو فى هذه الناحية أن حرم كثير من علماء الدين البحوث العقلية، بل اتخذ هذا التحريم حجة فى المناقشات ودحض البراهين، حتى أصبح شعارا للجامدين من الفقهاء رمى المفكرين بالزندقة والإلحاد..

والغزالى لم يقصد ذلك ولم يرم إليه، وإنما جرم من الفلسفة كل ما يتعارض مع أصول الدين وقواعده..

وأما ما عدا ذلك فقد دافع عنه بحرارة وغذاه وأوضحه ونشره على الخائفين فى بحوثه ودراساته..

يقول الغزالى فى كتابه تهافت الفلاسفة ما خلاصته: إن الفلاسفة

من عهد أرسطو إلى عهدنا هذا قد بنوا مذاهبهم فى الإلهيات على ظن وتخمين، من غير تحقيق ولا يقين، ويستدلون على صدق علومهم الإلهية بظهور العلوم الحسابية والمنطقية ويستدرجون بهذا صفات العقول، ولو كانت علومهم الإلهية متقنة البراهين نقية عن التخمين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا فيها، كما لم يختلفوا فى الحسابية والمنطقية.

وبهذا المنطق القوى الواضح ناقش الغزالى الفلاسفة فحطم ونقض جميع ما دبجت أقلامهم فى الإلهيات وعلوم ما وراء الطبيعة. .

مؤلفات الإمام الغزالى

ولعل كتاب (إحياء علوم الدين) الذى ألفه الإمام الغزالى من أهم الكتب الإسلامية فى كل العصور لما اشتمل عليه من تعريف الحرام والحلال من خلال شريعة الإسلام ومحاولة إلقاء الضوء على أعماق النفس الإنسانية. .

وقد قال عنه شيخ الأزهر الراحل محمد الخضر حسين: «فلا عجب أن يبلغ كتاب الإحياء فى الغوص على أسرار الشريعة والبحث عن دقائق علم الأخلاق وأحوال النفس غاية بعيدة، فكتاب الإحياء من صنع عقل نشأ فى قوة ورسخ فى علوم الشريعة، وخاض فى العلوم العقلية فوقف على كبيرها وصغيرها، وفرق بين سليمها ومعيبها، وخلص بعد هذا من كدور الهوى وظلمات الحرص على عرض الدنيا.

وإذا وجد العلماء فى كتاب الإحياء مآخذ معدودة فإنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل، وكفى كتاب الإحياء فضلا وسمو منزلة أن تكون درر فرائده فوق ما يتناوله العدد أو أن يظفر منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره».

وإحياء علوم الدين هو أشهر كتب الإمام الغزالى، ولكن له العديد من المولفات قالوا عنها أنها تصل إلى الثمانين مؤلفا. ومن أشهرها بعد الإحياء كتابه (مقاصد الفلاسفة)، وكتابه (تهافت الفلاسفة)، والاقتصاد فى الاعتقاد، ومعيار العلم، والمستصفى، والمنقذ من الضلال، وكيمياء السعادة، ومشكاة الأنوار، والمقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى.. وعشرات من الأبحاث الأخرى.. وبعض هذه الكتب ترجم إلى اللاتينية والعبرية، كما ترجمت بعض كتبه إلى الإنجليزية والأسبانية والفرنسية والألمانية.

هذا هو الإمام الغزالى الذى لخصه الشيخ مصطفى المراغى شيخ الأزهر الأسبق بقوله:

«إذا ذكر ابن سينا أو الفارابى، خطر بالبال فيلسوفان عظيمان، وإذا ذكر ابن عربى خطر بالبال رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطورتها، وإذا ذكر البخارى ومسلم وأحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أما إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى.

لم يخطر بالبال رجل واحد بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدرته وقيمته.

يخطر بالبال الغزالى الأصولى الماهر، والغزالى الفقيه الحر، والغزالى المتكلم إمام أهل السنة وحامى حماها، والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب، والغزالى الفيلسوف الذى ناهض الفلسفة، وكشف عما فيها من زخرف وزيف، والغزالى المربى، والغزالى الصوفى الزاهد، وإن شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره».

الرحيل

لقد ظل الغزالى يجاهد نفسه مجاهدة قاسية حتى شفت روحه، وقد حج إلى بيت الله الحرام، وأخذ طريقه إلى دمشق حيث اعتكف فى زاوية فى منارة المسجد الأموى.. وكان عزوفا عن مخالطة الناس، وأخذ فى تصنيف كتابه الخالد (إحياء علوم الدين).

وعرف عنه أنه زار المسجد الأقصى، والاسكندرية ثم عاد إلى وطنه فى خراسان حيث اعتكف واشتغل بالتفكير والعبادة..

ويقول الذين أرخوا له أنه عاد للتدريس فى المدرسة النظامية بعض الوقت، ثم عاد الى طوس.

وفى صباح يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الأخرى سنة ٥٠٥هـ توضأ وصلى ثم استقبل القبلة ومات.

وترجع أهمية الغزالى فى التصوف الإسلامى فى رأى الدكتور أبو الوفا التفتازانى إلى عدة أمور أهمها:

أنه أثار بقوة مشكلة الشك واليقين، فلم يجعل المعرفة الدينية

تقليدا أو جدلا نظريا كما هو الشأن عند المتكلمين، وإنما جعلها تجربة ذوقية أساسا، وحدد معالم هذه التجربة تحديدا لم يسبق إليه، فأعطى للإسلام فى عصره وبعد عصره ذوقا جديدا، وعمقا بعيدا.

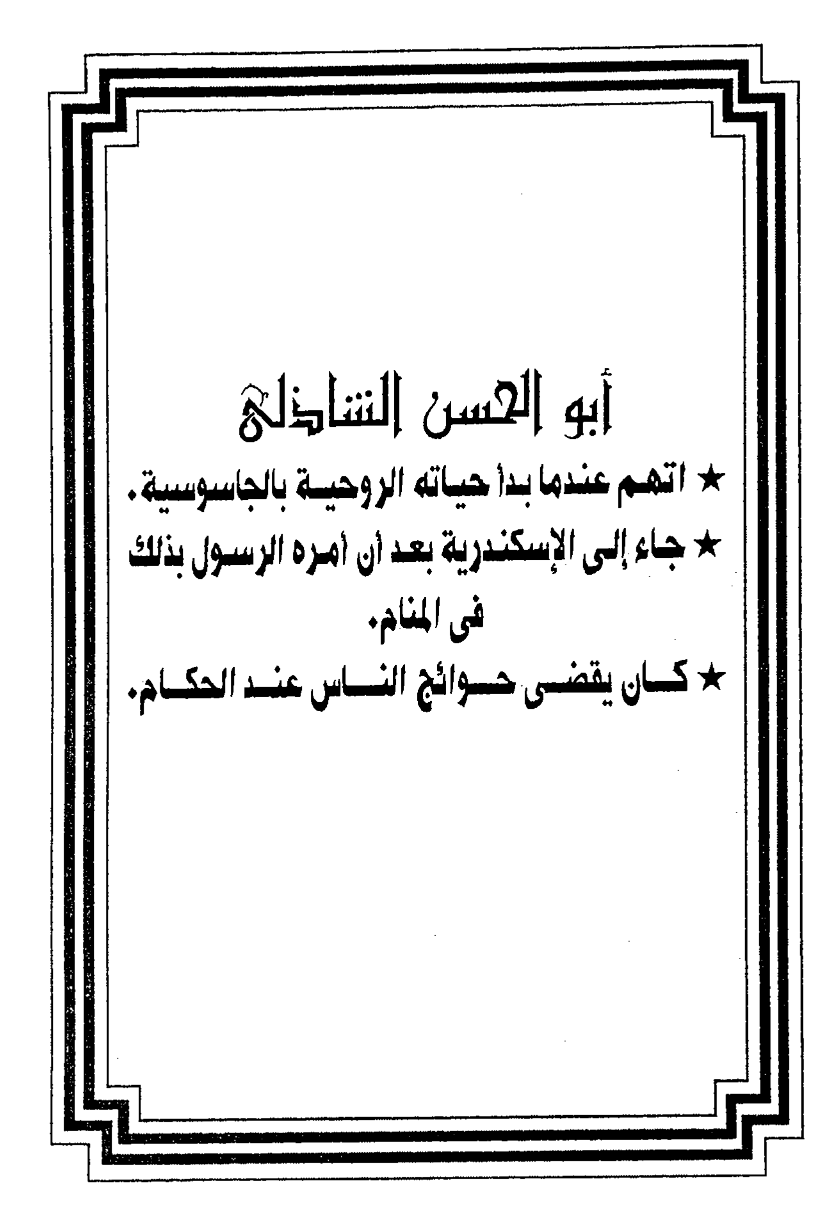
هذا من ناحية..

ومن ناحية أخرى كان الغزالى صوفيا إيجابيا عنى بشئون عصره.. فقد وقف فى وجه المذاهب الفكرية المنحرفة بقوة، ونقدها نقدا علميا دقيقا، وكان من الممكن لهذه المذاهب أن تقوض دعائم المجتمعات الاسلامية فى عصره وبعده لو تركت وشأنها.

وأمر آخر يثير الإعجاب بالغزالى.. وهو أنه مفكر عاش آراءه، فلم يكن ثمة فجوة بين ما يعتقد وما يسلك.. ويعتبر تصوفه صورة لحياته وحياته صورة لتصوفه.

وكان فى كل مراحل تطوره الروحى صادقا مع نفسه صدقا لا يتطرق إليه شك.

* * *



أبو الحسن الشاذلي

★ اتهم عندما بدأ حياته الروحية بالجاسوسية.

★ جاء إلى الإسكندرية بعد أن أمره الرسول بذلك في المنام.

★ كان يقضي حوائج الناس عند الحكام.

ولد أبو الحسن الشاذلى لسنة ٥٩٣هـ بقرية قريبة من مدينة سبته اسمها غمارة، حيث حفظ فيها القرآن الكريم، وتتلمذ على شيوخها فى دراسة الحديث، ثم رحل إلى مدينة فاس حيث التقى بالصوفى الكبير عبد الله بن أبى الحسن بن حرازم وعن طريقه عرف التصوف.

والشاذلى ينتهى نسبة بالحسن بن علىٍّ رضى الله عنه، وسمى بالشاذلى لأن أصوله تنتمى إلى شاذله بتونس.

وللشاذلى رحلات كثيرة.. فقد رحل إلى تونس، وكثير من مدن الشمال الأفريقى ثم اتجه إلى العراق، حيث اجتمع بالشيخ أبو الفتح الواسطى وتأثر به، ورجع مرة ثانية إلى المغرب حيث التقى بأحد كبار الصوفية(أبو محمد عبد السلام بن مشيش) وتتلمذ على يديه، حيث أمره أستاذه هذا أن يرحل إلى بلدة شاذلة حيث التقى بسيدى أبى محمد بن عبد الله بن سلامة، حيث سكن الشاذلى فى غار بجبل زغوان، وأخذ فى التعبد والقرب من الله، بصحبة تلميذه الحبيبى، وعندما ذاع صيته وعرف بالشاذلى نسبة إلى شاذلة، حيث انضم إليه المئآت من المريدين .

عندئذ حقد عليه القاضى أبى القاسم بن البراء، واتهم بأنه يعمل جاسوسا للفاطميين محاولا أن يوقع بينه وبين السلطان (أبو زكريا الحفصى)، ولكن السلطان سرعان ما اكتشف هذه المكيدة، واستيقن من أن الشاذلى عالم فاضل.. يعرف علوم الشريعة معرفة وثيقة،

وليس له أية صلة بالدسائس والمؤامرات، وبعدها ترك الشاذلى تونس من أجل الحج إلى بيت الله الحرام، وكأن ابن البراء لم يسترح لرأى السلطان فى الشاذلى عندما رفض نصيحته، ولم يقتنع أنه يعمل جاسوسا، فارسل برساله إلى سلطان مصر الملك الكامل بن محمد الأيوبى يحذره فيه من الشاذلى الذى سوف يمر على مصر وهو فى طريقة إلى الحجاز، مما جعل الملك الكامل يصدر أمرًا بالقبض عليه بمجرد وصوله إلى الإسكندرية.. وكانت رسالة البراء قد وصلت إلى ملك مصر قبل قدوم الشاذلى إليها، ولكن سرعان ما ظهرت براءته للمرة الثانية، عندما أمر الملك بأن تعقد مناظرة بين علماء مصر وبين الشاذلى، واكتشفوا أن الرجل بعيدا عن الدسائس والمؤامرات، وأنه من خيرة علماء عصره، وأنه يريد التوجه إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، فاعتذر له ملك مصر، وأكرم وفادته، ورجع الرجل مرة ثانية إلى تونس وفاءًا لعهده لسلطانها بالعودة إلى تونس بعد الحج، حيث التقى بتلميذه الذى سيكون له أثر كبير فى نشر تعاليم الإمام الشاذلى، وأنه سوف يكون خليفته فى طريقته التى انتشرت فى مصر عندما قدم مع أستاذه إلى الإسكندرية وهو (أبو العباس المرسى).

وقد كان وصول الشاذلى وتلميذه أبو العباس المرسى، وبعض مريديه فى عام ٦٤٢هـ.. حيث بدأ الرجل يلقى دروسه فى مسجد العطارين حيث لفت الأنظار إليه بما لديه من علم، وبما امتاز به بين

الناس بالتقوى والورع والتفرغ للعبادة، وقضاء حوائج الناس عند أصحاب السلطة والنفوذ، فعظم شأنه عند الجميع، وأحبه الجميع . . وأخذوا يحضرون دروسه فى بيته، وفى مسجد العطارين حيث كان يلقى دروسه .

ويقول الذين أرخوا لسيرة حياته أنه جاء إلى الاسكندرية بناء على رؤية رآها . . فقد رأى الرسول عليه الصلاة والسلام فى منامه يأمره بالتوجه لمصر.

وقد ظل الرجل فى مصر من عام ٦٤٢هـ إلى أن رحل إلى أكرم جوار سنة ٦٥٦هـ . . وهو فى طريقه إلى الحج، حيث مات فى صحراء عيذاب على البحر الأحمر، وهناك دفن. . وهناك مسجده القائم إلى الآن. . حيث أوصى أن يكون خليفته هو أبو العباس المرسى الذى كان قد تزوج من ابنته، وهو من أقرب تلاميذه إلى نفسه.

* * *

ويورد لنا الدكتور عمار النجار فى كتابه (الطرق الصوفية فى مصر) أن أوضح ما فى شخصية الشاذلى معرفتها الحقة بالله.

فيقول الشاذلى فى روعة وجلال:

«اعرف الله وكن كيف شئت».

ولهذا فقد رأينا أبا الحسن يختلف عن بعض أصحاب الطريق، حيث كان يرتدى أحسن الثياب وأجملها.

دخل عليه مرة فقير وعليه لباس من شعر فلما فرغ الشيخ من كلامه، دنا من الشيخ، وأمسك بملبسه وقال:

ياسيدى، ما عُبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك!

فأمسك الشيخ بملبسه فوجده فيه خشونة فقال: ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك، لباسي يقول: أنا غنى عنكم فلا تعطونى، ولباسك يقول: أنا فقير فاعطونى.

ودخل أبو العباس يوما على الشاذلى ، وفى نفسه أن يأكل الخشن، وأن يلبس الخشن فقال له الشيخ:

«يا أبا العباس اعرف الله وكن كيف شئت».

ويقول أبو الحسن:

«يا بنى: برِّد الماء، فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد الله استجاب كل عضو فيك بالحمد لله».

الحق أن مثل هذه الأمثلة تعكس مزاجين مختلفين فى التصوف:

(أ) العزيمة والتضييق والتشدد.

(ب) السهولة والرخص والانبساط.

من الفريق الأول التسترى والسرى والسقطى.

ومن الفريق الثانى: الجنيد والجيلى عبد القادر والشاذلى.

وقد وردت مثل هذه الثقة مع خلاف فى الحكم فى الرسالة القشيرية واللمع.

ويورد الدكتور عامر النجار قول فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود أن النظرية الشاذلية فى الغنى والفقر تفضل الغنى الشاكر على الفقير الصابر. وتعلل ذلك بأن الصبر فضيلة فى الدنيا فقط، أما الشكر فإنه فضيلة فى الدنيا والآخرة.

ويؤكد هذا المعنى أبو الحسن الشاذلى حين يقول:

«ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، ولا بقيمة الصناعة، وإنما هو بالصبر على الأوامر، واليقين فى الهداية».

ويقول تعالى فى كتابه العزيز:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف ـ ٣٢]

وكان مما يميز شخصية الشاذلى أيضا سعيه للخير ولقضاء مصالح الناس.

يقول ابن عطاء الله السكندرى:

أخبرنى بعض أصحابنا قال:

استشفع طالب الشيخ أبا الحسن إلى القاضى تاج الدين بن بنت الأعز أن يزاد على مرتبه فذهب الشيخ إليه، فأقبل القاضى تاج الدين وسأله فيما مجيئه؟

قال الشيخ:

من أجل فلان الطالب كى تزيده فى مرتبه عشرة دراهم.

فقال القاضى:

يا سيدى هذا له فى المكان الفلانى كذا، وفى المكان الفلانى كذا وكذا..

فقال له الشيخ:

يا تاج الدين لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده إياها، فإن الله تعالى لم يقنع المؤمن بالجنة جزاء له حتى زاد النظر إلى وجهه الكريم.

ويقول الدكتور أبو الوفا التفتازانى فى كتابه (مدخل إلى التصوف الإسلامى) عن الطريقة الشاذلية التى أسسها أبو الحسن الشاذلى، وخلفه أبو العباس المرسى الذى خلفه تلميذه ابن عطاء الله السكندرى أن تصوف الشاذلى والمرسى وابن عطاء الله، وهم أركان المدرسة الشاذلية، مبتعدا عن تيار مدرسة ابى عربى ومذهبها فى وحدة الوجود فلم يكن واحدا منهم قائلاً بهذا المذهب.

وعلى قدر بعدهم من ابن عربى نجد قربهم من تصوف الغزالى المتقيد بالكتاب والسنة.. وتأثرهم به.

ويكفى هنا أن نشير إلى بعض أقوال الشاذلى والمرسى التى يرويها ابن عطاء الله فى (لطائف المنن) لنبين منزلة الغزالى فى نفوسهم جميعا، وأنهم كانوا يدعون مريديهم إلى الاقتداء به، وانتهاج سنته.

فكان الشاذلى يقول لمريديه:

«إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبى حامد الغزالى».

ويقول أيضا ناصحا:

«كتاب الإحياء للغزالى يورثك القلم وكتاب القوت(للمكى) يورثك النور».

وكان أبو العباس المرسى يقول عن الغزالى:

إنا لنشهد له بالصديقية العظمى.

وقد ذكر ابن عطاء الله الإمام الغزالى فى مواضع كثيرة من مصنفاته معظما له ومبجلاً اقتداء بشيخه، كما تأثر به فى بعض نواحى مذهبه.

ويرى الدكتور التفتازانى أن الطريقة الشاذلية تتلخص تعاليمها فى أصول خمسة هى:

تقوى الله فى السر والعلانية، واتباع السنة فى الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق فى السر والعلانية، والإقبال والإدبار، والرضاء عن الله فى القليل والكثير، والرجوع إلى الله تعالى فى السراء والضراء.

وأبرز تعاليمها كذلك القول باسقاط التدبير. المقصود بالتدبير هنا النظر فى عواقب الأمور أو ما ستئول إليه مستقبلاً، وهذا من شأن

الخالق وحده، وعلى الانسان أن يعمل فى اللحظة الحاضرة ليوفيها حقها ولا يتشاغل نفسيا بالمستقبل، بما يعوقه عن العمل الإيجابى.

وإسقاط التدبير وهو الأصل الذى يبنى عليه الطريق كله، وهو المبدأ الذى عمقه ابن عطاء الله وجعله مذهبا كاملا للتصوف.

ويقول التفتازانى أن الشاذلى لم يترك مصنفات فى التصوف، ولا تلميذه أبو العباس المرسى، وكل ما خلفاه جملة أقوال فى التصوف، وبعض الأدعية والأحزاب.. وكان ابن عطاء الله هو أول من جمع أقوالهما، ووصاياهما وأدعيتهما وترجم لهما، فحفظ بذلك تراث الطريقة الشاذلية، ولولاه لضاع هذا التراث، ثم كان إلى جانب ذلك أول ما صنف مصنفات كاملة فى بيان آداب الطريقة والتعرف بها، وبقواعدها لكل من جاء بعده.

وقد كان للطريقة الشاذلية أثر كبير فى العالم الإسلامى، فانتشرت فى كل اتجاه، ووصلت إلى الأندلس، وأبرز ممثليها هناك فى القرن الثامن ابن عباد الرندى المتوفى سنة ٧٩٠هـ شارح الحكم العطائية ووصلت شرقاً إلى الملايو، كما انتشرت فى الشمال الأفريقى فى غرب أفريقيا ولا تزال واسعة الانتشار فى مصر وغيرها من بلدان العالم العربى.

* * *

وإذا كان البعض يعيب على المتصوفة أنهم قوم انعزلوا بحياتهم عن الناس، وعاشوا بعيدا عن المجتمع، فهذه سلبية لأنه من

الواجب على الإنسان السوى أن يشارك الناس حياتهم، ويدافع عن وطنه عندما يتعرض للمخاطر، ويعيش للآخرين كما يعيش لنفسه، فلا معنى أن يعيش الإنسان لإثراء ذاته روحيا، والارتفاع بها عما فى الحياة من شرور وآثام .. وبهذه الحجة يبتعد عن دنيا الناس ولا يشارك فيها.. والواقع أن معظم الصوفية لم يعيشوا لأنفسهم فقط ولكنهم كانوا يعيشون بالناس أيضا،.. فهم عندما يدعون إلى أن يعيش الناس حياة الطهر والصفاء، هم فى الواقع يقومون بمهمة إيجابية بانتشال الناس من المعصية إلى التوبة والبعد عن طريق الشرور، كما أن كثيرا منهم خاضوا المعارك فى سبيل أوطانهم، وجاهدوا فى سبيل الله، ودافعوا عن العرض والشرف لكل ما يمس أمن واستقلال وطنهم.

والإمام الشاذلى أحد الذين جاهدوا فى سبيل الله، بل أنه رغم شيخوخته وكف بصره، عندما تعرضت مصر للهجمة الشرسة فى الحروب الصليبية، وحاول لويس التاسع ملك فرنسا احتلال مصر، بعد أن يغزوها .. وهبت مصر كلها حكاما وشعبا للدفاع عن الوطن، كان الإمام الشاذلى من الذين توجهوا إلى المنصورة مع خيرة من علماء عصره من أمثال العز بن عبد السلام، ومعه كوكبة من علماء مصر.. لحث الناس على الجهاد فى سبيل الله، والتصدى لجحافل الغزاة.

لم يمنع الإمام الشاذلى أنه قد وهن جسمه، وكف بصره، بل إن

الدافع إلى الجهاد فى سبيل الله كان أقوى من شيخوخته . فدعا إلى الجهاد وذهب إلى الميدان!

والإمام الشاذلي كان بجانب علمه وفقهه وزهده وتقواه. . كان شديد الحرص أن يكون أتباعه عاملين بالكتاب والسنة، باحثين عن أرزاقهم عن طريق العمل، لأن العمل فى الإسلام عبادة، والعمل فى الإسلام قيمة كبرى.

والقرآن الكريم يحث عليه فى الكثير من الأيات

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾[التوبة: ١٠٥]

ويقول أيضا فى سورة (يس):

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٥].

ولا يمكن للأرض أن تحيى موتها، وتخرج ما فيها من حب نأكله، ونزرع فيها الحدائق التى بها نخيل وأعناب، وتفجر فيها العيون. . إلا ويكون ذلك ثمرة العمل.

والرسول العظيم عليه الصلاة والسلام يقول:

«من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة».

وقال أيضا:

«التاجر الصدوق يحشر يوم القيام مع الصديقين والشهداء».

وقال عليه الصلاة والسلام أيضا:

«من طلب الدنيا حلالاً، وتعففا عن المسألة، وسعيا على عياله، وتعطفا على جاره، لقى الله وجهه كالقمر ليلة البدر».

ومن أحاديثه عليه الصلاة والسلام قوله:

«لئن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره، خير من أن يأتى رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله أعطاه أو منعه».

وتروى لنا كتب السيرة أن النبى عليه الصلاة والسلام كان جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة، وقد بكر يسعى لعمله، فقالوا:

«ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله. فقال الرسول عليه الصلاة والسلام:

«لاتقولوا هذا. فإن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة، ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذريه ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله، وإن كان يسعى تفاخرا وتكاثرا فهو فى سبيل الشيطان».

الإسلام إذن يحتفى بالعمل.

والإسلام ضد الكسل. والتواكل.. وهناك فرق بين أن (تتوكل) على الله، وأن تتواكل كسلاً.

ومن هنا فإن التصوف السليم لا يقر الكسل والبطالة والقعود عن

العمل تحت أى حجة وأى مسمى. ولذلك نرى الإمام الشاذلى، فيما يرويه تلميذه أبو العباس المرسى يقول:

دخلت يوما على الشيخ أبى الحسن، فقال لى : إن أردن أن تكون من أصحابى، فلا تسأل أحد شيئاً وإن أتاك شئ من غير مسألة فلا تقبله.

فقلت فى نفسى : كان النبى صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية. وقال:

وما أتاك من غير مسألة فخذه. فقال الشيخ إن كنت تقتدى به فى الأخذ، فكن مقتديا به كيف يأخذ.. كان صلى الله عليه وسلم لا يأخذ شيئا إلا ليثيب من يعطيه ويعوضه عليه فإن تطهرت نفسك وتقدمت هكذا فأقبل وإلا فلا.

* * *

والطريقة الشاذلية وكما قلنا لا تحيد عن الكتاب والسنة، ومن هنا نرى أن الشاذلى لم يبح السماع.. أى أنه لم يقر كما يفعل أتباعه اليوم فى الاحتفالات المصحوبة بالموسيقى والإنشاد.. ويؤكد الدكتور عامر النجار ذلك فى دراسته التى أشرنا إليها (الطرق الصوفية بمصر) فيقرر أن الإمام الشاذلى رحمه الله من القائلين بعدم إباحة السماع لأهل الطريق، ويقول فى ذلك ابن عطاء الله:

قيل لسيدى أبى الحسن لم ياسيدى لا تحب السماع؟

فقال :

السماع من الخلق جفاء.

وقال الشاذلى: سألت أستاذى ـ يقصد ابن مشيش ـ رحمه الله عن السماع فأجابنى بقوله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩ـ٧٠]

وهناك نصوص كثيرة تؤكد أن الإمام الشاذلى من المنكرين للسماع، مع أن بعض أتباعه الآن يستخدمون فى احتفالاتهم وموالدهم الموسيقى والإنشاد.

ويورد قول الشاذلى:

رأيت فى النوم كأن بين يدى كتاب الفقيه ابن عبد السلام، وأوراقًا فيها شعر من جزء، وإذا باستاذى رحمه الله واقفًا، فتناول كتاب الفقيه بيمينه والأوراق بشماله، فقال لى كالمستهزئ: أتعدلون عن العلوم الذكية؟ وأشار بيده إلى كتاب الفقيه إلى أشعار ذوى الأهواء الرديئة، وأشار بيده إلى أوراق الشعر، ثم رماه فى الأرض وقال لى: من أكثر من هذا فهو عبد مرقوق لهواه، وأسير لشهوته ومناه، يسترقون بها القلوب بالغفلة والنسيان، ولا إرادة لهم فى عمل الخير واكتساب العرفان، يتمايلون عند سماعها تمايل اليهود ، ولم يحظ أحد منهم بما حظى أهل الشهود، لئن لم ينته الظالم ليقلبن الله أرضه سماء وسماءه أرضاً».

ويقول الحافظ جلال الدين السيوطى:

وكان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه ليس فى طريقه السماع.

من هذا كله يتضح لنا بجلاء أن إمام الطريقة الشاذلية ورائدها لم يأذن لأتباعه بالسماع، ومع ذلك فقد خالفوا شيخهم العظيم..!

* * *

و.. ما أجمل السياحة فى عالم الإمام الشاذلى..

فهو وإن لم يترك لنا تراثا من الكتب، بل أن كتبه هم تلاميذه على حد قوله، فإن قارئ الأحزاب والأوراد يشعر بجمالها، وما فيها من حس روحانى راق.

لقد عاش الشاذلى حياته عابدا.. زاهدا.. بمعنى أن ما يملكه لم يكن عبدا له، بل كان ما يملكه ملكا للناس، وكان له تلاميذ ومريدون كثيرون.. إلى أن رحل عن دنيانا وهو يتجه صوب الأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج.. لقد وافاه الأجل المحتوم عند (حميثرى) على ساحل البحر الأحمر حيث يوجد ضريحة الآن.

* * *

لقد عاش أبو الحسن الشاذلى متنقلاً بين مختلف الشمال الأفريقى، واستقر به المقام على أرض مصر، حيث ترك ذكرا عريضا ممدودا عبر الزمان، ودفن تحت ثرى مصر الطاهرة.. وبين الحياة والممات ترك الرجل تراثا مازال يعيش بيننا فى طريقته، التى قال

عنها الدكتور عبد الحليم محمود إن النظرية الشاذلية فى الغنى والفقر تفضل الغنى الشاكر على الفقير الصابر، وتعلل ذلك بأن الصبر فضيلة في الدنيا فقط، أما الشكر فإنه فضيلة فى الدنيا والأخرة.

ويورد الدكتور عامر النجار فى كتابه (الطرق الصوفية فى مصر) نشأتها ونظمها وروادها والآراء المختلفة حول فكر الشاذلى، وبعده عن نظرية وحدة الوجود، ويورد الدكتور على صافى: فلست أجد في قول الشاذلي ومأثوراته جميعا سواء منها الأذكار أو الأوراد أو الأحزاب عبارة ولا جملة تدل على أنه كان يذهب مذهب الحلوليين أو الاتحاديين أو القائلين بوحدة الوجود . اللهم إلا ما أخذه عليه (ابن تيميه) وذلك فى قوله ـ أعنى الشاذلى ـ اللهم انقذنى من أوحال التوحيد.

ومع ذلك فإن الدكتور صافي يرد على مأخذ (ابن تيميه) فيقول: على أن مأخذ ابن تيميه هذا على الشاذلى فى الإمكان رده، بأن يقال: إن الشاذلى أراد النجاة من التوحيد المتسبب عن الأدلة العقلية والبراهين المنطقية، لأنه فى رأيه اعتقاد غير راسخ أو هو عرضه للتزعزع والارتياب. أما التوحيد الذى يصبو إليه، أو يبتغيه ويسأل الله أن يبلغه إياه، فهو تلك العقيدة النظرية المستقرة فى أعماق النفس التى لم تكن مسببة عن نظر واستدلال، وإنما هى وليدة الإحساس القلبى، أو النهم الوجدانى الذى يعبر عنه لدى الصوفية بالإلهام.

فالشاذلى ـ رحمه الله ـ لم يكن إذن من أصحاب مذهب وحدة الوجود.. ولكن كان إنسانا عابدا.. زاهدا .. يسير فى طريق الحقيقة والشريعة دون شطحات.. يرى أن النجاة فى التمسك بالكتاب والسنة.

ومن يقرأ أوراده أو أحزابه، سوف يرى أنه أمام بحر زاخر من شفافية النفس، وصفاء الروح .. وفيها من التجليات ما يجعلنا نرى فى الشاذلى إنسانا عالما.. عاملا بعلمه.. وانظر إلى هذا الدعاء الذى كان يدعو به ربه.. لنرى كم كان هذا الرجل حريصا على أن يسمو بروحه إلى مدارج النور.

(يا الله، يا فتاح يا عليم، يا غنى يا كريم.

افتح قلبى بنورك وارحمنى بطاعتك. واحجبنى عن معصيتك، وامنن على بمعرفتك.

واغننى بقدرتك عن قدرتى، وبعلمك عن علمى، وبارادتك عن إرادتى، وبحياتك عن حياتى، وبصفاتك عن صفاتى.

وبوجودك عن وجودى، وبدنوك عن دنوى، وبقربك عن قربى، وبحبك عن حبى، وبصدقك عن صدقى، وبحفظك عن حفظى، وبنظرك عن نظرى، وبتدبيرك عن تدبيرى، وباختيارك عن اختيارى، وبحولك وقوتك عن حولى وقوتى، وبجودك وكرمك وفضلك ورحمتك عن علمى وعملى، إنك على كل شئ قدير).

* * *



المرسي أبو العباس

الحديث عن أبى العباس المرسى حديث مشوق.. لأنه حديث عن إنسان ترك أثراً عميقا فى حياته وبعد مماته.

وهو نفس الوقت خليفة العارف بالله أبو الحسن الشاذلى.

وعندما نشير بسرعة إلى تلك الحياة الخصبة المثمرة المعطاءة فإننا بذلك نعطى مجرد إشارة أصبع لهذه الشخصية الجليلة.

فالحديث عنها يمكن أن يستغرق عدة مجلدات.

وسيرة هذا الرجل يمكن أن تكون قدوة صالحة للسالكين طريق الله.. وطريق الله يتمثل دائماً فى كتاب الله وسنة رسوله.

من هنا نرى أن أبا العباس المرسى كان إنسانا متعدد الجوانب.. فهو صوفى عظيم.. وهو مرب فاضل.. وهو عالم جليل.. كما أنه كان صاحب كرامات عديدة.. والكرامة بالنسبة للأولياء.. كالمعجزة بالنسبة للأنبياء.. وكلتاهما.. المعجزة والكرامة من الأشياء التي يعجز العقل والمنطق عن تفسيرهما.. ولكنهما تكريما من الله سبحانه وتعالى لأنبيائه وأوليائه.. فإحياء الموتى على يد عيسى.. والإسراء بمحمد.. وشق البحر بعصا موسى.. كل ذلك من قبيل المعجزات.. ونداء عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسارية أن يلزم الجبل.. وكان سارية محاصراً من قِبَل الأعداء فسمع وهو بالشام على بعد مئات الأميال صوت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول له: يا سارية الجبل!.. وماكان منه إلا أن صعد إلى الجبل ونجا بجنده من الأعداء.. هذا من قبيل الكرامة.. وهكذا..

ولد المرسى أبو العباس فى (مرسيه) وهى بلدة فى الأندلس. . وكان ذلك عام (٦١٦هـ - ١٢١٩هـ). . وإليها ينسب. . وينتهى نسبه إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج. . وكان والده تاجراً، أرسله إلى من يعلمه القرآن الكريم وكان فى سن صغيرة. . وحفظ القرآن الكريم. . ودرس على هذا الفقيه أمور الفقه. . وعندما بلغ سن الشباب. . أخذ يثقف نفسه بنفسه، واشتغل فى نفس الوقت مع والده فى أمور التجارة. . وعندما بلغ الرابعة والعشرين من عمره عزم والده أن يأخذ أسرته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. . وبينما هم فى البحر قامت عاصفة عاتية على أثرها غرق الوالد والوالدة، ونجا هو وأخوه محمد. . كانوا بالقرب من شاطئ تونس. . وكانت الأقدار تعده لأن يسلك طريق الصوفية. . وأن يلتقى بالشاذلى . . ويصبح تلميذه وخليفته. . إنه يقص قصته مع الشاذلى والصوفية فيقول:

لما نزلت بتونس سمعت بذكر الشيخ أبى الحسن الشاذلى فقال لى رجل: أتمضى بنا إليه؟ فقلت: حتى استخير الله، فنمت تلك الليلة، فرأيت كأنى أصعد إلى رأس جبل، فلما علوت فوقه، رأيت هنالك رجلا عليه برنس أخضر، وهو جالس وعن يمينه رجل، وعن يساره رجل، فنظرت إليه فقال:

عثرت على خليفة الزمان فانتبهت.

فلما كان بعد صلاة الصبح، جاءنى الرجل الذى دعانى إلى

زيارة الشيخ فسرت معه. فلما دخلنا عليه رأيته بالصفة التى رأيته بها فوق الجبل فدهشت!

فقال لى: عثرت على خليفة الزمان: ما أسمك؟ فذكرت له اسمى ونسبى، فقال لى: رفعت لى منذ عشر سنين.

وكانت هذه الصحبة مع الشاذلى.. والذى أخذ يتعهده برعايته ليكون خليفته.. ومات الشاذلى، ودفن (بحميثرة) بالصعيد وهو فى طريقه إلى الحج.. بعد أن أوصى أن يكون خليفته أبا العباس المرسى.. وكان أبو العباس المرسى يقول:

(لى أربعون سنة ما حجبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو حجبت عنه طرفة عين ماعددت نفسى من جملة المسلمين).

وكان المرسى أبو العباس يقول أنه شاهد الخضر عليه السلام.

ويروى لنا التاريخ العديد من الكرامات التى نسبت إلى هذا القطب الجليل.

وعلى سبيل المثال لا الحصر.. يروى عنه أن السلطان يعقوب ذبح دجاجة وخنق أخرى ودعا الشيخ أبو العباس المرسى فرفض الأكل قائلاً:

إن احدى الدجاجتين جيفة، والأخرى بخرت بحرق هذه الجيفة..

ومن الكرامات التى تروى عنه أيضا. أنه وبعض المريدين كانوا

مع شيخهم الشاذلى وهو فى طريقه إلى الحجاز. . ومات الشاذلى فى الطريق. . ودفن الشاذلى. وغسّله المرسى، وصلّوا عليه. . ودفن (بحميثرة). . وطلب المرسى أبو العباس أن يواصلوا طريقهم إلى بيت الله الحرام. . فقد أمره الشيخ الشاذلى بذلك، وأخبره أنه سوف تحدث بعض الكرامات. . وقد حدثت كرامة يقصها أبو العباس المرسى بقوله:

سافرنا مع الشيخ رضى الله عنه: فى السنة التى توفى فيها، فلما كنا عند أخميم، قال لى الشيخ:

رأيت البارحة كأنى فى جلبلة وأنا فى البحر والرياح قد اختلفت والأمواج قد تلاطمت، والمركب قد انفتح وأشرفنا على الغرق. . فأتيت إلى جانب المركب وقلت:

أيها البحر. . إن كنت أُمرت بالسمع والطاعة لى. . فالمنة لله السميع العليم، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم. . فسمعت البحر يقول لى :

الطاعة. . الطاعة. .

فلما سافرنا. . وتوفى الشيخ رضى الله عنه ودفناه بحميثرة فى صحراء عيذاب، وكنا فى جلبة. . فلما صرنا وسط البحر. . اختلفت الأمواج، وتلاطمت الرياح، وانفتح المركب، وأشرفنا على الغرق. . ونسيت كلام الشيخ. . فلما اشتد الأمر. . ذكرت ذلك. . فأتيت إلى جانب المركب وقلت : أيها البحر إن كنت أمرت بالسمع

والطاعة لأولياء الله فالمنة لله، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم. فسمعت البحر يقول:

الطاعة.. والطاعة..

وسكت البحر وطاب السفر.

والحديث عن المرسى أبى العباس يطول.. فقد كانت له رؤيته الصوفية.. وكانت له تفسيرات للقرآن الكريم.. كما أن كلماته لمريديه كانت مصابيح هداية لهم وللأجيال التالية.. إنها كلمات تنطق عن معان خالدة.. ومن هذه الكلمات التى وعتها ذاكرة الزمن مثل هذه الكلمات التى أوردها ابن عطاء الله السكندرى:

- لما خلق الله تعالى الأرض اضطربت فارساها بالجبال.. وكذلك النفس لما خلقها الله تعالى اضطربت فارساها بجبال العقل.

- ليس العجب ممن تاه فى نصف ميل أربعين سنة، إنما العجب ممن تاه فى مقدار شبر الستين والسبعين والثمانين سنة وهى: البطن.

- من اشتاق إلى لقاء ظالم فهو ظالم.

- إذا قرأت القرآن فكأنما أقرؤه على الله عز وجل.

- ما سمعتموه منى ففهمتموه فاستودعوه الله يرده عليكم وقت الحاجة، وما لم تفهموه فكلوه إلى الله يتول بيانه واسعوا فى جلاء مرآة قلوبكم يتضح لكم كل شئ.

وما أكثر الكلمات المضيئة التى انتقلت إلينا عبر التاريخ من هذا

الرجل.. الذى جاء إلى مصر.. وتقابل مع الشاذلى.. وكان تلميذه المخلص وخليفته.. وظل سالكا طريق الله إلى أن انتقل إلى رحابه فى الخامس والعشرين من ذى القعدة(٦٨٥هـ- ١٢٨٧هـ) وكان سنه حوالى سبعين عاماً.

والذى يقرأ أدعيته.. يرى فيها الإيمان والإخلاص لله.. والاستغراق كلية فى حب الله.. ذلك الحب الذى كان ينسيه أى شئ آخر فى الوجود.. لنقرأ معاً مثل هنا الدعاء الخاشع الذى كان يتوجه به إلى العلى القدير:

(يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بينى وبين طاعتك على بساط مساعدتك، وفرق بينى وبين هم الدنيا وهم الآخرة، ونب عنى فى أمرهما: واجعل همى أنت.. واملأ قلبى بمحبتك وبهجه بانوارك.. وخشع قلبى بسلطان عظمتك، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك).

أما مسجد سيدى أبى العباس المرسى بروعة مبانيه التى تراها عليه اليوم فله قصة.. فقد دفن أبو العباس فى مقبرة باب البحر عند وفاته، وبعد ذلك بحوالى ٢١ سنة رأى أحد أثرياء الإسكندرية من التجار واسمه زين الدين بن القطن رؤيا بمقتضاها قام الرجل ببناء مسجد على هذه المقبرة.. وظل هذا المسجد يأخذ فى الاتساع والإضافات التى كان يضيفها محبو الشيخ، إلى أن أخذت وزارة الأوقاف تعد مشروعا لهذا المسجد سنة ١٩٢٧.. وعلى أساسه

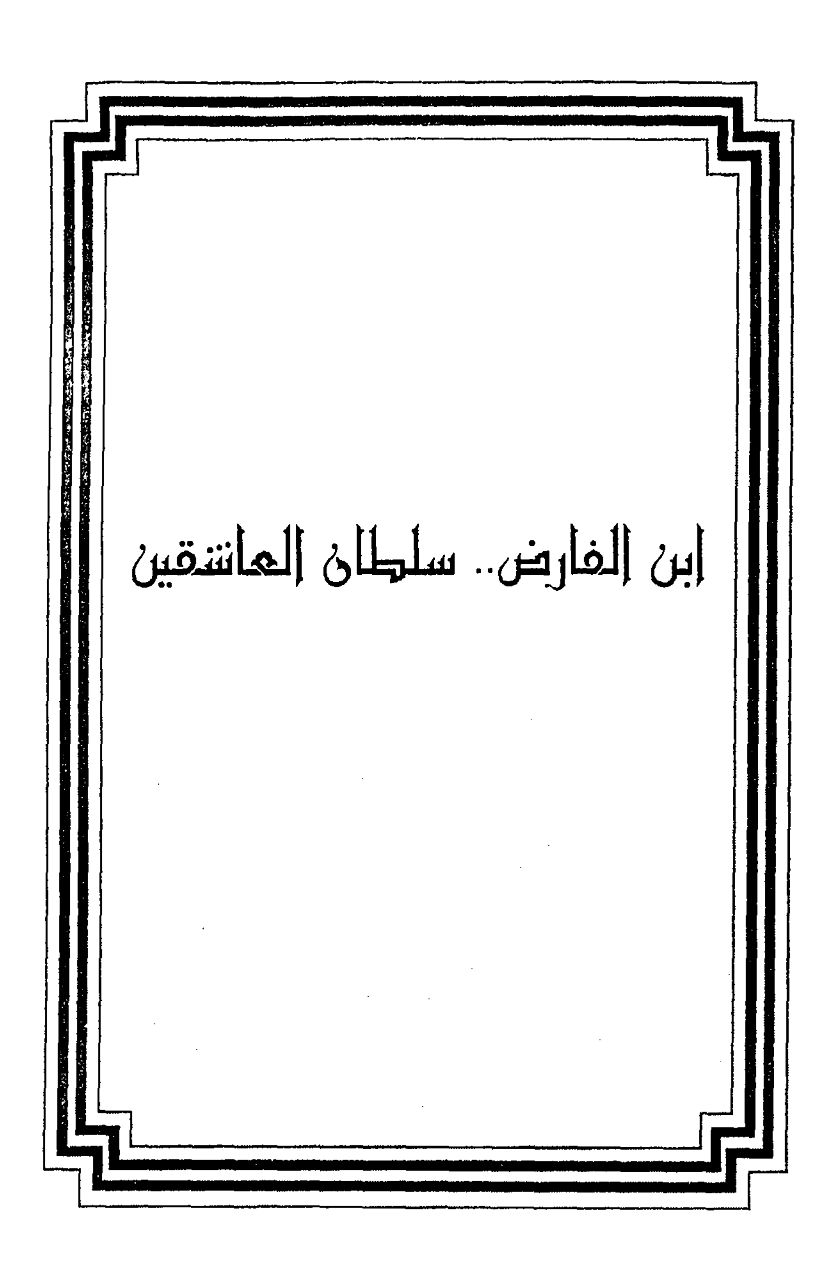
قررت بناء المسجد من جديد على شكل يليق بصاحبه الصوفى الجليل.

وقد وضعت أسس بناء هذا المسجد بالفعل سنة ١٩٢٩، وفى عام ١٩٤٤ تم بناء هذه التحفة المعمارية الممتازة.. التى جعلته ضمن أجمل مساجد الشرق.. هذا المسجد الذى شاهد انطلاقة ثورة ١٩ الخالدة.. وكانت المظاهرات تنطلق من ساحته.. وكثيراً ما اجتمع فيه رجل الدين الإسلامى والمسيحى أثناء هذه الثورة الشعبية الشاملة عام ١٩١٩، منطلقة إلى مختلفة أرجاء الإسكندرية مطالبة بالحرية والاستقلال لشعب طالما أضنته سياط المستعمرين.

إن هذا المسجد يرمز دائما إلى جمال الروح عندما تصفو متحررة من الأوحال.. متطلعة إلى النور.. عازفة عن الدنيا.. راغبة فى نعيم الله.. وصدق الله العظيم..

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

* * *



ابن الفارض.. سلطان العاشقين

ولد عمر بن الفارض فى مصر عام ٥٧١ هـ وكان والده كمال الدين الفارض السعدى قد نزح من حماه بالشام حيث جاء إلى مصر فى شبابه، وعمل فى وظيفة تتصل بالقضاء، وسمى بالفارض لأنه كان يكتب الفروض للرجال والنساء.. وكان والد عمر ملما بالفقه والشريعة، متدينا، وتأثر به ابنه عمر، فنشأ محبا لدراسة الفقه والشريعة، يريد أن يتعمق فى أمور الدين كوالده، كما أنه أراد أيضا أن يقتدى بوالده فى ورعه وتقواه.. فاتجه إلى وادى المستضعفين بالقلعة حيث كان يرد إليه من يريد النسك والتعبد.. وقد شجعه والده على ذلك خاصة بعد أن درس على بعض الشيوخ فى حلقاتهم علوم الدين وتزود بما ينفع فى مشوار حياته.

فبينما كان ذاهبا للصلاة ذات يوم فى المدرسة السيوفية وجده بقالا يتوضأ على مذهب الحنفية.. أى أنه كان لا يراعى فى وضوئه الترتيب المعروف عند الشافعية، ونبهه البقال لخطئه فى الوضوء.. وأن عليه أن يرتب الوضوء الترتيب المعهود بأن يغسل الوجه ثم اليدين ثم يمسح على رأسه ثم غسل القدمين.. ولكنه نظر إليه طويلاً.. وقد استشف مدى نقاء عمر، فطلب منه أن يذهب إلى الحجاز.. حيث مهبط الوحى.. وهناك سوف يفتح الله عليه ويصل إلى ما ترنو إليه نفسه للوصول إلى (العلم اللدنى) ووقعت كلمات الرجل فى قلبه موضع القبول.. واتخذ من هذا البقال شيخا له، واتجه إلى الأراضى المقدسة، حيث عاش هناك خمسة عشر

عاماً. . زار فيها مكة والمدينة ومختلف أرجائها التى تذكره بصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام وجهاده العظيم. . هناك شفت روحه. . وصفت نفسه. . وأحس أنه قريب من ربه. . وأن الأضواء تغمره.

وقيل أنه عاد إلى مصر بناء على دعوة شيخه فى مصر إليه، يعود لكى يحضر وفاته ويشيعه إلى مثواه الآخير. . جاء إلى مصر شخصية أخرى.

إنسان محب لله. . خاضع له. . خاشع قلبه. . يجرفه الحنين إلى أم القرى حيث بدأ الرسول عليه الصلاة والسلام بنشر دعوة الإسلام بما فيه من مبادئ وقيم وعقائد، ويحن إلى التراب الذى كان يسير عليه أعظم رسل السماء، فترنم بتلك الأبيات الشديدة العذوبة:

يا سميرى روِّح بمكة روحى

شاديا إن رغبت فى إسعادى

كان فيها أنسى ومعراج قدسى

ومقامى المقام والفتح بادى

وكان من الطبيعى بعد أن ذاق لذة العبادة. . وجمال الشفافية. . وجلال القرب من الله. . أن يواصل عبادته ومجاهداته فى وادى المستضعفين فى المقطم حيث بدأ مسيرته، وجال المساجد الأخرى وابتدأ الناس يسمعون عنه. . وابتدأ الناس يحاولون الاغتراف من

علمه، ولكن الرجل كان فى واد آخر. . فقد وهب وقته للمجاهدة. . فكان كثيرا ما يصوم النهار، ويقوم الليل. . ذاكرا ومسبحا. . وقارئا القرآن الكريم.

كان الرجل مهيبا. . جليلاً. . جميل الوجه. . يهش لكل الناس فأحبه الجميع.

ويروى الرواة كيف أن سلطان مصر الأيوبى الكامل . . جلس ذات يوم فى إحدى ندواته الأدبية يتحدث عن أصعب القوافى وهى التى تنتهى بالياء الساكنة، وكان أحد حضور هذه الندوة أحد تلاميذ عمر بن الفارض الذى أخبره أن عمر بن الفارض نظم قصيدة من مائة وخمسين بيتا من الشعر (يائية ابن الفارض)

وعندما سأل السلطان عن عمر وماذا يكون؟ أخبروه أنه زاهد فى الدنيا، عاشق للصوفية عاش خمسة عشر عاما فى الرحاب المقدسة عابدا لله قانتا لله.

وأعجب السلطان هذه المناقب، وأرسل إليه مع تلميذه ألف دينار يستعين بها فى حياته وينفق منها على مريديه، ولم يستمع السلطان للمريد الذى أخبره بأن عمر لا يحب الهدايا ولا الهبات، ولكن تحت ضغط السلطان أخذها، وعندما توجه إلى ابن الفارض حيث كان يتعبد فى الجامع الأزهر ابتدأه عمر بقوله:

- مالك ولذكرى فى مجلس السلطان؟، رد الذهب إليه!!

وعندما عاد الرجل بالأموال إلى السلطان، شعر السلطان بقدر

هذه الصوفى الجليل، وأراد أن يزوره، إلا أن عمر عندما شعر بموكب السلطان خرج من باب آخر واتجه إلى الإسكندرية.. حتى لا يقابله.. وحتى يشعره أنه ليس فى حاجة إلى دنيا الحكام.. ولا إلى عطاياهم.. إنه لا يريد إلا وجه الله.

وهذا يدل على أن الرجل كان زاهدا.. لايسعى إلى دنيا.. ولا إلى جاه.. ولا إلى سلطان.

ولأن عمر بن الفارض كان موهوبا.. شاعرا بالفطرة فقد نظم فى الحب الإلهى أجمل القصائد التى خلدته كشاعر، وخلدته أيضا كصوفى جليل.. رقيق المشاعر.. عذب الكلمات، وإن كان فيه بعض الغموض، إلا أن هذا الغموض هو الذى يعطى لهذا الشعر جماله.. ومن هذه القصائد القصيدة التى أشرنا إليها والتى أعجب بها السلطان والتى مطلعها:

سائق الأظعان يطوى البيد طى

منعما عــرج علــى كثبــان طــى

ودارس حياة هذا الرجل الصوفى يبهره نفسه الطويل، فتائيته الكبرى تزيد على سبعمائة وستين بيتا.. أنه يتحدث فيها عن رحلته الروحية منذ أن عاش فى الرحاب المقدسة، وتزود هناك بالطاقات الروحية المذهلة، حتى شفت روحه وصفت وتألقت بنور الحب الإلهى.. إنه فيما يجسد لنا مشاعر رجل عاش للحب وبالحب.. وليس هناك حبا أجمل ولا أروع ولا أجل من حب الذات الإلهية

التى خلقت الوجود وأبدعته، ويتجلى فى هذه المخلوقات كلها عظمة الخالق.

وقارئ سيرة حياته.. يعرف أن الرجل ظل طوال حياته متمسكا بالشريعة.. وأن الشريعة هى التى تقود الإنسان إلى الحقيقة.. والطريق إلى الحقيقة يتمثل فى العمل بما جاء فى كتاب الله وسنة الرسول.. فالإنسان عندما يجاهد النفس والهوى والشيطان، ويقيم الفرائض، ويكثر من النوافل.. يكسر الحواجز التى تحول بين الإنسان وشفافية الروح.. فتتغلب الروح على المادة.. وبهذا ينطلق إلى عالم الشهود.

وما أروع الإبحار فى عالم ابن الفارض الشعرى.. إنه بالشعر يعبر عن حالته الوجدانية، ويعبر عن لحظات فرحه وسعادته وهو يذوب عشقا فى الذات الإلهية.. إن هذا العشق لا يعرفه إلا من تذوقه.. حيث يشعر بما لا يمكن التعبير عنه بالكلمات.. فهو يرى الله فى كل مظاهر الوجود.. وفى كل ما نراه حولنا، لأن الله هو مبدع كل الكائنات، وخالق كل ما فى الوجود، وهو عندما يعبر عن إحاسيسه تلك، وفرح حبه بعظمة مولاه وجلاله، لا يصدر ذلك عن فلسفة وحدة الوجود كما كان يرى ابن عربى، ولكنه يعبر عن مشاعر حبه، وموته شوقا إلى مبدع هذا الوجود.. وما يستحقه من إجلال وحب وشوق.. يقول ابن الفارض فى إحدى قصائده:

تـراه إن غـاب عنى كـلُّ جارحة
فـى كـلِّ معنـى لطيـف رائق بِهجِ
فى نغمة العُود والنّايِ الرّخيم إذا
تَألَّفـا بـين الحــان مــن الهــزج
وفى مسارح غـزلان الخمائل فى
بَرْدِ الأصائل والإصباح فى البَلَجِ
وفـى مسـاقط أنـداء الغمام على
بسـاط نَـوْرٍ مـن الأزهـار مُنْتَسِج
وفـى مسـاحب أذيـال النسيم إذا
أهـدى الـىَّ سُحـيزا أطيب الأرج

وهو يصف هذه النشوة الكبرى الذى تعترى المحب العاشق للذات الإلهية أو مايسميه المدامة، وصفًا جميلاً جذابا . . يعرج بنا إلى عالم روحانى أخّاذ . . ليس فيه صفات المادة . . هذا النور المبهر الذى لا يحده زمان ولا مكان.

يقـولون لـى صفهـا فـأنت بـوصفها
خبيرٌ، أجل عندى بأوصافها علم
صفـاء ولامـاء ولطـف ولا هَـواَ
ونــور ولا نـار وروح ولا جســم
تقّـدم كــلَّ الكـائنات حــديثُها
قـديما ولا شكـل هنـاك ولا رسـم

وهامت بها روحى بحيث تمازجا اتِّـ
حـادًا ولا جـرمٌ تخلَّلـه جِـرْمُ
ولا قبـلها قبـلٌ ولا بَـعْدَهَا بَعْـد
وقَبْلتـهُ الأبعـاد فهـى لهـا حتـم

لقد كان ابن الفارض يؤمن بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله من منزلة المقربين إليه، والمقربون إليه هم الذين يسيرون على هدى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وقد قال عليه الصلاة والسلام مما أورده البخارى:

«ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان.. أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار».

وكان أعظم رسل الله يقول فى دعائه:

«اللهم ارزقنى حبَّك وحبَّ من يحبك، وحب من ينفعنى حبَّه عندك، اللهم مارزقتنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب، وما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغا لى فيما تُحَب».

فالحب هو منتهى ما يريد أن يصل إليه الصوفية..

إنه الذوبان فى العشق الإلهى..

وهم يستندون فى ذلك إلى الحديث الشريف الذى يقول إن العبد يتقرب إلى الله بالنوافل، حتى يحبه الله، فإذا أحبه كان سمعه الذى

يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها. . ومن هنا يمكن للعابد . . أو الصوفى . . أو العارف بالله أن يغيب عن كل شئ إلا حبه للذات العلية.

وقد توفى عمر بن الفارض فى الجامع الأزهر بقاعة الخطابة، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٦٣٢هـ للهجرة ودفن بالقرافة فى سفح الهرم عند مجرى السيل تحت المسجد المعروف بالفارض، وقد دفن تحت رجل شيخه أبو الحسن البقال. . وقد قال عنه أبو الحسن الجزَّار:

لـم يبـق صيـت مـزنة إلا وقـد
وجبـت عليـه زيـارة ابـن الفـارض
لا غـرو أن يسـقى ثـراه وقبـره
بـاق ليـوم العـرض تحـت العـارض

ويروى لنا الدكتور شوقى ضيف فى دراسته عن ابن الفارض الذى كتبها تحت عنوان (ابن الفارض ومجاهداته الروحية) حادثتان له مع السلطان الكامل حاكم مصر الأيوبى لعهده تدلان أبلغ الدلالة على زهده ورغبته عن حطام الدنيا، كما تدلان على السر فى تعلق الناس حينئذ بالمتصوفة تعلقا شديدا يتجاوز كل حد. .

أما الأولى فخلاصتها أن السلطان الكامل كان يعقد مجالس للعلم والأدب، وأنه فى بعض مجالسه الأدبية عرض على الحاضرين فيها للقوافى الصعبة، وقالوا أن من أصعبها قافية الياء الساكنة، فأخذ

يستنشد من يحفظ منها أبياتا، وإذا كاتب ممن يختلفون إلى ابن الفارض ويحفظون أشعاره يقول إنه يحفظ منها قصيدة طويلة فى مائة وخمسين بيتاً، يقصد يائية ابن الفارض . .

سائق الأظعان يطوى البيد طىَّ

فطلب إليه السلطان أن ينشدها حتى إذا انتهت منها سأله عن ناظمها فقال له إنه ابن الفارض الصوفى، وذكر له من أحواله فى العبادة والنسك ما جعله يرسل إليه معه بألف دينار لينفقها ابن الفارض على المتصوفة الواردين عليه .

ونمضى مع هذه القصة . . ونعرف أن ابن الفارض رفض هذا المبلغ، بل إنه عنّفَ تلميذه بقوله :

مالك ولذكرى فى مجلس السلطان؟ ردَّ إليه الذهب! فردّه إلى صاحبه .

ويحدثنا عن الحادثة الثانية وخلاصتها أن الكاتب حين عاد بالذهب إلى السلطان الكامل قال له :

أيكون مثل هذا الشيخ الصالح فى زمانى ولا أزوره، لابد لى من زيارته ورؤيته .

وركب إلى الأزهر فى جماعة من حاشيته يريد رؤيته والتماس الدعاء منه، ولم يكد ابن الفارض يحس بقدومه حتى خرج من باب آخر من أبواب الجامع ورحل توّا إلى ثغر الإسكندرية، وأقام هناك أياما، ثم عاد إلى الأزهر معلولاً شاعرًا بدنو الأجل . . وعلم

السلطان بحاله فأرسل إليه يستأذنه فى أن يبنى له قبرا ومزاراً فلم يأذن له .

كان من الطبيعى أن يلتف الناس حول الصوفى الزاهد ابن الفارض بما لمسوه عنده من سمو فى السلوك وبعد عن زخارف الدنيا . . وهربا من الحكام . . فهو لم يسع إليهم فحسب ، بل هرب منهم . . لأنه يجد القرب فى ملك الملوك . . فى حب الذات العلية .

وما عند الله خير وأبقى . .

* * *



الإمام البوصيري.. مادح الرسول

اسمه شرف الدين أبا عبد الله.. ولد سنة ٦٠٨هـ وتوفى سنة ٦٩٨هـ، وهو ينسب إلى قرية أبو صير بالجيزة، ويقول بعض مؤرخيه أنه ينتسب إلى أصول مغربية.. وقد درس البوصيرى الشريعة، وتعمق فى اللغة، وعمل فى محافظة الشرقية ككاتب فى دواوين الحكومة، ولكنه لم يعجبه ما كان يراه من عدم أمانة الموظفين، وعدم رعايتهم الله والناس فى عملهم، فكتب فى ذلك شعرا طريفا .. إلا أنه وقد عرف الإمام الشاذلى، وتلميذه المرسى أبو العباس، فقد تأثر بآرائهما فى التصوف ورؤياهما لواقع الحياة وما فيها من أباطيل، وأن الخير كل الخير فى الاتجاه إلى الله، والزهد فى الدنيا.. ومن هنا فقد آثر أن يكون عابدا على طريقة المدرسة الشاذلية وأن يتفرغ لطاعة الله.

كان من الطبيعى فى إنسان له شفافية البوصيرى وحسه وشاعريته وحبه لأهل الله، أن تتوق نفسه لصاحب الرسالة النبى العظيم، وأن تكون نفسه مراة تعكس ما كان فى عصره من أحداث، ومن أهم هذه الأحداث الذى شاهدها الحروب الصليبية وما تركته على أرض الشرق من بصمات. فقد حاولوا اغتصاب فلسطين، وتطلعوا إلى غزو مصر والشام، وتركوا ألسنتهم تتحدث مهاجمة الإسلام والمسلمين.. فكان من الطبيعى على البوصيرى أن يرد على هجماتهم، ويعيب عليهم انحرافهم وتحريفهم للمسيحية واليهودية، وكان عليه أن يشدوا بنبيه العظيم.. خاتم الأنبياء والمرسلين..

كان البوصيرى مبهورا بصاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام، وبمواقفه العظيمة، وصموده الهائل أمام المشركين، بجانب شمائله وأخلاقياته الرفيعة.. فكانت سيرة حياته هى المنبع الذى كتب فيه أجمل أشعاره.

وكان كغيره من الصوفية يرون أن النور المحمدى هو أصل الوجود.. وأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان نورا فى المنازل، إلى أن جاء إلى الدنيا ليجسد كل الفضائل.

وكان الإمام البوصيرى من هؤلاء الذين درسوا مسيرة الرسول الأعظم، وتاهوا إعجابا بها، وبرز ذلك فى شعره عندما سجل مشاعره حتى تاقت نفسه إلى زيارة الرحاب المقدسة، وأداء فريضة الحج وزيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ومنذ أن وقف كعب بن زهير يمدح الرسول فى قصيدته المشهور البردة، وأعجاب الرسول بهذه القصيدة، حتى أنه خلع عليه بردته، تلك البردة التى اعتز بها صاحبها.. وظلت وديعة غالية عند أولاده وأحفاده إلى أن اشتراها معاوية بن أبى سفيان بمبلغ كبير من المال، وتوارثها من بعده خلفاء بنى أمية.. منذ ذلك الحين والشعراء يحاولون أن ينهجوا نهج هذه القصيدة، ومن هنا كانت القصائد التى تأخذ نفس النهج يطلق عليه نهج البردة كما فعل الإمام البوصيرى فى عصره، وأمير الشعراء أحمد شوقى فى عصرنا الحديث.

ويقول دارسو الإمام البوصيرى أنه كان على علم بالتوراة والإنجيل، فقد درس المسيحية واليهودية، ليرد على مزاعم من يهاجم الإسلام من المسيحيين واليهود، وله قصيده اسماها (المخرج والمردود على النصارى واليهود).

كما أن له قصيدة نظمها سنة ٦٥٤هـ، حين احترق سقف المسجد النبوى، يرد فيها على من شمت من اليهود والنصارى بهذا الحدث، وقد استهل قصيدته بقوله:

الهى على كل الأمور لك الحمد

فليس لما أوليت من نعم حد

وفى هذه القصيدة يشيد بالرسول وبخلفائه الأربعة، كما يتحدث عن معجزات الرسول الكريم.. الذى أنزل الله عليه معجزة القرآن، ومعجزات أخرى كالإسراء والمعراج.

وعندما حج البوصيرى.. وطاف بالأماكن التى طاف بها الرسول.. أخذ تتداعى إلى ذهنه مواقف النبى وبطولاته ومناقبه، فنظم بعد أن عاد إلى مصر قصيدته الهمزية الرائعة (أم القرى فى مدح خير الورى».. والتى مطلعها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء

يا سماء ما طاولتها سماء

لم يساووك فى علاك وقد حا

ل سنا منك دونهم وسناء

إنمــــا مثلــــوا صفاتــــك للنــا

س كمـــا مثــل النجــوم والمــاء

أنت مصباح كل فضل فما تصدر

إلا عـــن حقــوقك الأسمـــاء

ولكن الذى لا شك فيه أن أروع ما قدمه من قصائد حشد فيها كل مواهبه. . وكل طاقاته المبدعة هى قصيدته الشهيرة (البردة). . التى افتتن بها الناس فى كل العصور، حتى أن شوقى عندما كتب (نهج البردة) كان يؤمن أنه لا يستطيع أحد أن يبلغ ما بلغه البوصيرى من شاعرية فقال:

المادحــون وأربــاب الهــوى تبــع

لصاحــب البـردة الفيحـاء ذى القــدم

اللــه يشــــهد أنـــى لا أعـــارضه

من ذا يعارض صوف العارضين العرم

ولهذه القصيدة قصة. . يرويها بعض أصحابه عنه أنه قال:

«كنت قد نظمت قصائد فى مدح الرسول ﷺ ثم اتفق بعد ذلك أن أصابنى فالج (شلل) أبطل نصفى، ففكرت فى عمل قصيدتى هذه (البردة) فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى أن يعافينى وكررت إنشادها، وبكيت، ودعوت وتوسلت ونمت، فرأيت النبى ﷺ فمسح على وجهى بيده المباركة، وألقى علىَّ بردة، فانتبهت ووجدت فىَّ نهضة، فقمت وخرجت من بيتى!»

ويقول الرواة.. إن هذه القصة شاعت، حتى أن الوزير الملقب بالصاحب، طلب من البوصيرى أن يسمعها.. ويستهل هذه القصيدة بقوله:

أمــن تذكـر جيـران بـذى سلـم
فرجـت دمعـا جـرى مـن مقلة بدم
أم هبـت الريـح مـن تلقـاء كاظمـة
وأومض البرق فى الظلماء من إضم
فمـا لعينيـك إن قلـت اكففـا همـتا
ومـا لقلبك إن قلـت استفق يهـم

وفيها يصف الرسول العظيم بقوله:

فـاق النبييـن فـي خلـق وفـي خلق
ولـم يدانـوه فـي علـم ولا كـرم
وكلهـم مـن رسـول اللـه ملتمـس
غرفـا من البحر أو رشفا من الديم
وواقفـون لديـه عنـد حـدهم
من نقطة العلم أو من شكله الحكم
فهـو الـذى تـم معنـاه وصـورته
ثـم اصطفـاه حبيبـا بـارى النسـم

وهو يرى فى هذه القصيدة أن محمدا عليه الصلاة والسلام كالشمس وبقية الأنبياء كالكواكب التى تدور فى فلكه، ثم يعرج

فيها يصور سيرة النبى العربى، ومعجزاته، ثم يحدثنا عن المعجزة الكبرى القرآن الكريم:

ردت بلاغتهـــا دعـــوى معارضهـا
رد الغيـــور يـــد الجـــانى مـــن الحـــرم
لهـا معـان كمـوج البحـر فـى مـدد
وفـوق جـوهره فـى الحسـن والقيـم
لا تعجـــبن لحســـود راح ينكـــرها
تجـاهلا وهـــو عـــين الحـاذق النهـم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكـر الفـم طعـم المـاء مـن سقـم

وهو بعد أن يحدثنا عن مآثر الرسول، ويتحدث عن خوفه ورجائه فى الله أن يغفر ذنوبه، يستعطف ربه فى خاتمة قصيدته بقوله:

ألطـف بعبـدك فـى الـدارين إن له
صبـرا متـى تـدعه الأهـوال ينـهزم
وائـذن لسـحب صـلاة منـك دائمـة
علـى النبـى بمنهـل ومنســجم
مارنحـت عـذبات ربـع صبـا
وأطـرب العيش حادى العيس بالنغم

* * *

مهما يكن من شيء فإن البوصيرى الذى خلده شعره، ما كان يمكن أن يصل إلى المكانة التى وصل إليها كشاعر وصوفى عظيم، إلا لأن الله وهبه مع تقواه وحبه للرسول وآل بيته، تلك الشاعرية المتدفقة حتى قيل عنه أنه عندما كتب قصيدته الشهيرة تلك توقف عند هذا البيت من الشعر:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر

واستعصى عليه أن يكمل البيت، فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام فى المنام، وأكمل له البيت

فمبلـغ العـلم فيـه انـه بشـر
وأنـه خيـر خـلق اللـه كلهـم

وسواء أكان هذا حقيقة أم من أقوال الرواة، فقد كان الرجل محبا للرسول وآل بيته، وكان شفيف الوجدان.. زاهد.. يخشى الله ورسول.

* * *

وقارئ أشعار البوصيرى يرى لها إيقاعا خاصا.. ولها موسيقى تهز الجوارح، وتصل إلى أعماق الإنسان، ومن هنا فقد كانت قصائده تنشد فى الموالد، وحلقات الذكر، ويهتز الناس لها طربا.. ليس فى مصر وحدها بل وفى بعض البلاد العربية وخاصة بالشام.. وأصبحت البردة، والهمزية، من أشهر القصائد الذى يترنم بها الناس، وخاصة الصوفية.

ويبدو أن الإمام البوصيرى قد نظّم قصائد لتقال فى مجالس الذكر، لأن إيقاع أبياتها تتمشى مع هذه الجو الصوفى، وتتمشى مع روح هذه الأذكار مثل قوله:

يارب صلى على المختار من مُضَرٍ
والأنبيا وجميع الرسل ما ذُكروا

وصلِّ رب على الهادى وشيعته
وصحبه من لَطِيِّ الدين قد نشروا

وجاهدوا معه فى الله واجتهدوا
وهاجروا وله آوَوْا وقد نَصروا

أزكى صلاة وأنماها وأشرفها
يفطر الكونَ ربَّا نَشْرِها العَطِرُ

ومن المعروف أن البوصيرى كان من أنبه تلاميذ الطريقة الشاذلية التى أسسها فى الإسكندرية أبو الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦هـ، وقد كان لهذه الطريقة - ومازال- أتباع كثيرين، ومن أبرزهم (أبو العباس المرسى) وابن عطاء الله السكندرى، صاحب الحكم العطائية، ولطائف المنن.

وإذا كان الصليبيون قد حاولوا طمس حقائق الإسلام والتهجم على نبيه، فقد قام البوصيرى بالرَّد على هذه المزاعم والافتراءات، قد قصيدة (٢٧٢ بيتنا) يرد فيها على من يتهجمون على الإسلام، ونبيه المصطفى. . ومدللا على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام،

بالبشارات التى بشرت به فى التوراة والإنجيل. وهو فى هذه القصيدة الذى يتحدث فيها عن مناقب أعظم رسل الله، ويرد على افتراءات الكذبة المفترون، ويعلن أن النبى الخاتم هو أعظم رسل الله.. وفيها نقرأ مثل هذه الأبيات:

مـازال يـرقى فى مواهب ربه

وينال فضـلا من لدنه جزيلاً

لواستمـد العالمـون علومـه

مـدتهم القطـرات منـه سيولا

وهو صاحب هذه الأبيات الشهيرة، التى تدل على مدى عشقه للذات المحمدية، وأنها أخذت عليه جوانب نفسه، فهو يعرف قدر هذا الرسول العظيم، الذى أخرج برسالته الخالدة، الناس من الظلمات إلى النور، وكيف عانى ما عانى فى سبيل نشر هذه الدعوة التى تنشر العدل والإخاء والمساواة والحب والأمل بين الناس، بما فيها من تشريعات وعقائد ترفع الإنسان إلى مستوى يليق بالانسان.. إنه القائل:

نحن أشـرف الأعراب والعَجم

محمد خير من يمشى على قدم

محمـد تـاج رسـل اللـه قاطبة

محمد صادق الأقوال والكلم

إلى آخر هذه الأبيات التى تشدو بالنبى الخاتم وتوفيه بعض حقه

العظيم.. هذا النبى الذى كان قرآنا يمشى على الأرض. عليه الصلاة والسلام. و.. قد انتقل الإمام البوصيرى إلى جوار ربه سنة ٦٩٦هـ من الهجرة.. حيث فاضت روحه إلى بارئها ودفن بالإسكندرية، ومقامه فيها معروف.

* * *

وتبقى كلمة

لقد أبحرنا فى عالم الصوفية.. رأينا كيف يعيشون.. وكيف يرون الحياة وهم يتطلعون إلى عالم الخلود.

عرفنا أناسا زهدوا فى الدنيا لأنهم يرونها مجرد قنطرة للآخرة.

لم يبهرهم جاه المال، ولا نفوذ السلطة.. ولا كل ماله بريق فى هذه الحياة الفانية، لأنهم يحسون وهم مع الله أنهم حاذوا الدنيا بحذافيرها، ولهم رجاؤهم الذى لا ينقطع فيما يعده لهم الله تعالى من نعيم لا ينفد فى الآخرة.

لم يكن غريبا أن يقول أحدهم:

(نحن فى نعمة لو علمها الملوك لحاربونا عليها بالسيوف!).

يجئ أحد الرجال إلى يونس بن عبيد يشكو سوء حظه فيقول له الرجل الصالح:

أيسرك أن يذهب بصرك وتعطى مائة ألف؟

ويجيبه الرجل: لا.

ويدور بينهما هذا الحوار العميق:

أيسرك أن تذهب يداك ورجلاك وتعطى مائة ألف ؟

- لا .

أيسرك أن يذهب عقلك ولسانك وتعطى مائة ألف؟

- لا .

- انظر إذن كم معك من مئات الألوف وأنت تشكو الحاجة!

إنهم عرفوا طريق الحقيقة . .

والحقيقة هى الوجه الآخر للشريعة .

قدوتهم فى سلوكهم أعظم رسل الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام . . أليس هو القائل :

«كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » .

أليس الرسول الخاتم هو القائل :

«إن عينى تنامان ولا ينام قلبى» .

وليس فى التصوف السليم تواكل بل اتكال على الله . . والأخذ بالأسباب . . والرسول الكريم يقول :

«لأن يأخذ أحدكم حبله إلى الجبل فيأتى بحزمة يحملها على ظهره، خير له أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» .

وهو القائل :

«ما أكل أحد طعاما خيراً من أن يأكل من عمل يده، وأن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

و.. ما أكثر أحاديث الرسول التى تحث على العلم، والعمل دون أن ينسى الإنسان بالطبع أنه غريب أو عابر سبيل.

والصوفى هو أكثر الناس التزاما بشريعة الله.. يعبد الله كأنه يراه، فإذا لم يكن يراه فإن الله يراه.

الصوفى الحقيقى هو الذى يريد وجه الله.. لا يريد أن يقال عنه أنه تقى، ولا يقال عنه أنه يخشى الله.. إنما يريد أن يكون بينه وبين نفسه معتنقا بأنه لا يبغى بعبادته دنيا.. ولا يبغى الرياء.. ولا يبغى السمعة.. إنما يريد أن تتصل روحه بأسباب السماء.. ويعيش فى رضا من الله.. وهذا خير من الدنيا وبما فيها ومن فيها..

إنها الطمأنينة.. والنفس المطمئنة التى يسعون للظفر بها حتى يصلون إلى شاطئ الأمان.. ويقابلون الله سبحانه وهو عنهم راض.

* * *

المراجع

١- القرآن الكريم

٢- الأحاديث النبوية الشريفة

٣- عوارف المعارف — للسهروردى تحقيق: د. عبد الحليم محمود، ودكتور محمود بن الشريف

٤- الرسالة القشيرية — للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى

٥- مدخل إلى التصوف الإسلامى — د. أبو الوفا التفتازانى

٦- التصوف الإسلامى الخالص — السيد محمود أبو الفيض المنوفى

٧- التصوف الثورة الروحية فى الإسلام — د. أبو العلا عفيفى

٨- الإحياء — للإمام الغزالى

٩- المنقذ من الضلال — للإمام الغزالى

١٠- رابعة العدوية بين الغناء والبكاء — د. سعاد عبد الرازق

١١- رحلة بين العقل والوجدان — د. محمد كمال جعفر

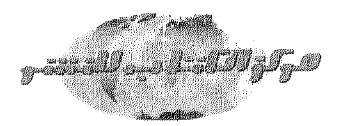
١٢- الطرق الصوفية فى مصر — د. عامر النجار

العنوان	المؤلف
١٣- والموعد الله	خالد محمد خالد
١٤- قطوف من أدب النبوة	أحمد حسن الباقورى
١٥- الأدب الصوفى اتجاهاته وخصائصه	د. صابر عبد الدايم
١٦- الفلسفة والحقيقة	د. عبد الحليم محمود
١٧- أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبى	د. عبد الحليم محمود
١٨- الدكتور التفتازانى أستاذ التصوف ـ ومفكرًا إسلاميا	كتاب تذكارى باشراف د. عاطف العراقى
١٩- فصول فى الشعر ونقده	د. شوقى ضيف
٢٠- مرشد الزوار إلى قبور الأبرار: للإمام موفق الدين بن عثمان	تحقيق محمد فتحى أبو بكر، تقديم د. حسن الباشا
٢١- الله.. دراسة فى النص الكامل لرسالة القصد المجرد فى معرفة الاسم المفرد لابن عطاء الله السكندرى	لفاروق منصور.

الفهرس

رقم الإيداع ٩٧/١٣٠٠٧
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977-294-036-1

طبع آمون
٤ عطفة فيروز - متفرع من ش إسماعيل أباظة - لاظوغلى
تليفون: ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦


مركز الكتاب للنشر